
الرسالة

5 me Année, No. 207

Lundi - 21 - 6 - 1937

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العـــدد ٢٠٧ « القاهرة في يوم الاثنين ١٢ ربيع الثاني سنة ١٣٥٦ — ٢١ يونية سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

فهرس العـــدد

صفحة

الأدب وتحصيـــله

على ذكر مقال « ادب السندوتش »

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

نعى صديقي الأستاذ الزيات ـ صاحب الرسالة ـ على أدباء هذا الجيل الجديد، جهلهم بلغتهم وتقصيرهم في تحصيل آدابها، وقال: « ان الواقع الأليم أن الذين درسوا لغتهم وفقهوها من الأدباء النابهين نفر قليل. فاذا استثنيت هؤلاء الستة أو السبعة وهم من الكهول الراحلين، وجدت طبقة الأدباء كطبقة الصناع والزراع والتجار يأخذون الأمور بالتقليد والمحاكاة، لا بالدرس والمعاناة، وقال أيضا: « ولا تجد في تاريخ العربية قبل هذا العصر، ولا في تاريخ اللغات في جميع العصور، من يحسب نفسه أديبا في لغة وهو لا يعرف منها الا مايعرف العامي الألَفُ »

وهذا صحيح. وأحسبني من الستة أو السبعة الذين أشار اليهم الاستاذ؛ وإني لمن الكهول فقد جاوزت الاربعين وقاربت الخمسين، ولكني إن شاء الله من الباقين لا من الراحلين، فاني أحس من العزم والقوة والنشاط مالو فرق بعضه على الأدباء النابتين أو الناجمين في زماننا هذا، لكفاهم

وزيادة . ولست أكتب لأقول هذا ، وإنما أريد أن أرسم للقراء صورة لأيام التحصيل الأولى . وأقول « الأولى » لأنا ما زلنا دائبين على التحصيل لا نعرف له نهاية إلا نهاية الحياة نفسها .

عرفنا القراءة والاطلاع ونحن تلاميذ فى المدارس الثانوية ؛ وأدع غيرى وأتحدث عن نفسى فأقول إن مواردى كانت محدودة جداً ؛ وكان حسبى أن أؤدى نفقات التعليم . وكنت أحمد الله إذا وجدت بعد ذلك قرشاً فى اليوم . وكان من زملائى فى مرحلة التعليم الثانوى الاستاذ حسن فهمى رفعت بك - وكيل الداخلية الآن - ولا أعرف كيف كان حاله ، ولكنى أعرف أنه كان يعيرنى ما يشترى من الكتب بعد أن يفرغ منها ؛ وقلما كان يسترد ما يقرضنى من كتبه . وكان فريق منا يعنى بأن يحضر دروس الامام الشيخ محمد عبده ، والشيخ سيد المرصفى . وانتقلنا إلى التعليم العالى ، وكتب الله لى - على خلاف ما كنت أريد - أن أدخل مدرسة المعلمين العليا ، فكان مرشدى فيها وأستاذى ، زميلى وصديقى الاستاذ عبد الرحمن شكرى ، فقد كان شاعراً ناضجا ذا مذهب فى الأدب يدعو اليه ؛ وكنت أنا مبتدئا ، فصرفنى عن البهاء زهير وابن الفارض وابن نباتة ومن إلى هؤلاء ، ووجهنى إلى الأدب الجاهلى والأموى والعباسى ، ودلنى على ما ينبغى أن أقرأ من الأدب الغربى . وكانوا ينقدوننا فى هذه المدرسة بضعة جنيهات فى الشهر : ثلاثة فى السنة الاولى ، وأربعة فى الثانية والثالثة ، فكنت أقسم هذه الجنيهات قسمة عادلة ، فأدفع للبيت نصفها وأستأثر بالنصف ، وأذهب إلى مكتبة فأنتقى منها « مؤونة الشهر » . وكنت أعود إلى البيت بهذا الحمل فتسألنى أمى ، « أنفقت فلوسك كلها ! وتظل طول الشهر تقول لى : هاتى ! . هاتى ! . أى تدبير هذا ؟ »

فأقول : « يا أمى .. لك مؤونتك من السمن والعسل والأرز والبصل والفلفل والثوم ، ولى مؤونتى من المتنبى والشريف الرضى والأغانى وهازليت وتاكرى وديكنز وماكولى ؛ ولا غنى بك عن سمنك وبصلك ، ولا بى عن هؤلاء ؟ »

فتبتسم وتقول : « طيب . . » وتدعو لى بالتوفيق

وكنت أشترى ديوان الشاعر ورقا ، أعنى بغير غلاف أو تجليد ، ليتسنى لى حين أخرج من البيت أن أحمل معى ملزمة أو ملزمتين ، أقرأ فيهما وأنا جالس فى مقهى ، أو إذ أتمشى على شاطىء النيل . وكان حديثنا إذ نجتمع فى الأدب والكتب ؛ وكانت رسائلنا التى نتبادلها فى الصيف حين نتفرق لا تدور إلا على ما نقرأ ؛ وكان أحدنا يلقى صاحبه فى الطريق اتفاقاً فيقول له : « لقد عثرت على كتاب نفيس بغلاف فتعال نقرأه » لا يدعوه إلى طعام ، أو شراب ، أو سينما ، أو لهو ، بل إلى قراءة كتاب . وكان كل من يقع على كتاب قيم يخف به إلى صاحبه فينبئه به ويلخصه له ويحضه على اقتنائه . وكان أساتذتنا فى مدرسة المعلمين يحثوننا على التحصيل وييسرون لنا أسبابه ، ما وسعهم ذلك ، فلما تركنا المدرسة وفرغنا من الطلب « الرسمى » كنا قد عرفنا أمهات الكتب فى الأدبين العربى والانجليزى ، وغيرهما أيضاً من الآداب ، ودرسنا أكثر شعراء العرب والغرب ، وكان لكل منا مكتبته الخاصة المتخيرة

وتزوجت . وفى صباح ليلة الجلوة ، دخلت مكتبتى ورددت الباب . وأدرت عينى فى رفوف المكتب ، فراقنى منها ديوان « شيلى » فتناولته وانحططت على كرسى وشرعت أقرأ ، ونسيت الزوجة التى ما مضى عليها فى بيتى إلا سواد ليلة واحدة ؛ وكانوا يبحثون عنى فى حيث يظنون أن يجدونى - فى الحمام ، وفى غرفة الاستقبال ، وفى « المنظرة » - حتى تحت السرير بحثوا ، ولم يخطر لهم قط أنى فى المكتبة ، لأنى « عريس » جديد لا يعقل فى رأيهم أن يهجر عروسه هذا الهجر القبيح الفاضح ! وكانت أمى فى « الكرار » أو المخزن تعد مالا أدرى لهذا الصباح السعيد ، فأنبأوها أنى اختفيت كأنما انشقت الأرض فابتلعتنى ، وأنهم بحثوا ونقبوا فى كل مكان فلم يعثروا لى على أثر ، فما العمل ؟

فضحكت أمى وقالت : « ليس فى كل مكان ... اذهبوا إلى المكتبة فانه لاشك فيها »

فقالت حماتى وضربت صدرها بكفها : « فى المكتبة ؟ يا نهار أسود ! وهل هذا وقت كتب وكلام فارغ ؟ »

فقالت أمى بجزع : « اسمعى ... كل ساعة من ساعات الليل والنهار وقت كتب ... افهمى هذا وأريحى نفسك ، **فان كل محاولة لصرفه عن الكتب ، عبث** »

فقالت حماتى : « لو كنت أعرف هذا ... مسكينة يابنتى ... وقعت وكان ما كان »

فقالت أمى : « هل تكون مسكينة إذا وطدت نفسها على هذه المعرفة ؟ ويحسن أن تكبحى لسانك ، وأن تدعى الأمر لبنتك فانه من شأنها »

فلم تكبح لسانها بل قالت : « لو كانت ضرة ... لكان أهون ! »

فقالت أمى : « إنك حمقاء ... وليس فى الأمر ما يحوج إلى هذا الهراء ... اذهبى إليه وناديه ... »

فارتدت إلىّ ، وفتحت الباب علىّ ، وكنت ذاهلا ؛ فلما شعرت بالباب يفتح أزعجنى ذلك ، فأشرت إلى الداخل أن يرجع من غير أن أنظر إليه ؛ وكنت مقطباً ، وكان لسانى يخرج أصواتاً كهذه : « شش ! شش ! »

فخرجت المسكينة وأغلقت الباب ، وذهبت تقول لأمى والدموع تنحدر من عينيها إنى طردتها وصحت بها : « هشش ! » كما يصاح بالدجاج ؟

وقد عرفت هذا كله فيما بعد ، فطردتها ، لأنى خفت أن تخرب لى البيت ؛ ثم إنى تزوجت بنتها ، ولم أتزوجها هى ، فما مقامها عندى ولها بيت طويل عريض وزوج كريم ؟ وكان رأى بنتها فيها مثل رأيى ، فلم يسؤها منى ما فعلت . وأراحنا الله من دوشتها ، ولكن زوجتى كانت تقول إلى آخر أيام حياتها رحمها الله : « ليس لى ضرة سوى هذه الكتب » - كانت تقولها مازحة ، فقد راضت نفسها على احتمال هذا الجنون منى ، واستطاعت أن تدرك أنه ليس لها ولا لسواها حيلة ، وأن فى الوسع صرفى عن أى شىء إلا عن الكتب والدرس .

ويا ما أذكى المرأة !! تكون لها حاجة تريد منى قضاءها ، وتخشى رفضى وعنادى ، فتكتمها ولا تكاشفنى بها ، وتنتظر حتى ترانى غارقاً فى كتاب ، وذاهلا به عن الدنيا ، وآية الذهول أن تدخل مرات فلا أشعر بها ، فتقبل علىّ وتلاطفنى وهى عارفة بما سيكون منى ، فأعبس ، كما كانت تتوقع ، فتقول « كلمة واحدة ... لن أعطلك ... »

فأقول متململا متأفقاً : « لا حول ولا قوة إلا بالله ! قوليها يا ستى ولا تعطلينى » فتطيل عامدة لتضجرنى : « كلمة واحدة بس ... لماذا تغضب هكذا ؟ ... ألا يتسع صدرك لكلمة ليس إلا ؟ »

فأكاد أجن وأقول : « يا ستى قوليها ، وأريحينى ! »

فتقول : « المسألة الفلانية ... »

وأنهض ، وأمضى بها إلى الباب وأنا أقول : اصنعى ماتشائين . كل ما بدا لك اصنعيه ، ولكن لا تعطلينى ... أنا محتاج لعقلى كله الآن ... ألا تفهمين ؟ هذه نسخة مخطوطة ، منسوخة ... من ديوان ابن الرومى ... نسخها حمار كلها غلط وتحريف وتصحيف ، ... ليس فيها بيت واحد له معنى ... فكيف يمكن أن أصلح غلطة واحدة إذا كنت تطيرين لى عقلى بالفساتين والخياطة والركامة ... ؟؟ ... »

فتبتسم ، فقد بلغت سؤلها ، وتعدنى أن تحرس هذا الباب فلا تترك أحداً يدخل منه أو يقربه .

ومن العناء الذى تكلفته أنى اشتريت الأغانى الذى طبعه « الساسى » - اشتريته ورقاً على عادتى ، فكنت أراجع الأبيات التى ترد فيه ، فى دواوين الشعراء أو كتب الأدب الأخرى ، فأصلحها أو أتمم القصيدة - أنسخ ذلك فى ورقة وألصقها فى الكتاب ، وكلما فرغت من جزء جلدته ، وقد أصبح ضعف ما كان ؛ وهذا هو الكتاب الوحيد الذى بعته بأضعاف ثمنه ، فقد اشتريته بمائة قرش وخمسة قروش ، فلما بعت مكتبتى فى سنة ١٩١٧ أو ١٩١٨ - لا أذكر - ابتاعه منى وراق بخمسين وسبعمائة قرش ، وقد ندمت على بيعه ، فما أستطيع أن أصنع الآن ما صنعته قديماً ، ولكن العناء الذى تكبدته نفعنى ، فقد أحوجنى إلى مراجعات لا آخر لها ، وأطلعنى على ما كنت خليقاً أن أخطئه فيفوتنى العلم به

وأنا مع ذلك أقل الثلاثة - العقاد وشكرى - اطلاعاً وصبراً على التحصيل . وأدع للقارىء أن يتصور مبلغ شرههما العقلى ؛ ولا خوف من المبالغة هنا ، فإن كل ظنى دون الحقيقة التى أعرفها عنهما . وأنا أجتر كالخروف ، ولكنهما يقضمان قضم الأسود ، ويهضمان كالنعامة ، فليتنى مثلهما !

ابراهيم عبد القادر المازنى

كثرة البطولة أو ندرتها ؟

للأستاذ عباس محمود العقاد

لخص العالم الفاضل الأستاذ أحمد أمين ما بيننا من خلاف على مسألة النبوغ والبطولة فى ختام مقاله فقال :

« عصرنا الحاضر طابعه طابع المألوف والمعتاد لا طابع النابغة والبطل ، وإن كان مألوفنا ومعتادنا أرقى من نابغة القرون الماضية وبطل القرون الماضية

« إن كان هذا - يا أخى - هو الذى أردتُ فأظن أنه لا يرد على بمزايا العصر الحاضر ، وعلم العصر الحاضر ، وفن العصر الحاضر . وإذا كان النبوغ فى السبق وكانت المقارنة بين عصرين بقياس مسافتى البعد ، فأرجو أن نكون على وفاق فيما ذكرتَ وذكرتُ »

وموضع الوفاق بين ما قال الأستاذ وما قلت أننا لا ينبغى أن نقيس علم السابقين إلى علم المحدثين ، فليست المقارنة بين مقدار ما نعلم ومقدار ما يعلمون ، وإنما المقارنة بين الملكات فى الزمن الماضى ، والملكات فى الزمن الحاضر ، وهذا ما نختلف عليه ؛ إذ لا موجب عندى لأن تكون ملكات النابغين فى عصرنا أقل مما كانت فى عصر الأقدمين

إن النبوغ صفة فى أصحابها وليست صفة فى غيرهم ، فاذا تعلم غير النابغين أو لم يتعلموا فصفة النبوغ باقية فى أصحابها سواء ظهروا بين المتعلمين أو ظهروا بين الجهلاء . وكل ما هنالك من فرق أن النابغة الذى يظهر بين المتعلمين أنبغ من زميله الذى يظهر بين الجهلاء ، وتلك شهادة للنابغين فى العصر الحديث تضاف إلى ميزان الحسنات والمرجحات

ومسافة البعد بين النابغ القديم ومعاصريه ، هى مسافة البعد بين نابغينا وأبناء عصرنا إذا نحن تجاوزنا مسألة التعليم ووفرة المتعلمين ، لأن النبوغ ملكة مطبوعة ، والمسافة بين المطبوعين وغير المطبوعين اليوم هى هى المسافة بين الفريقين قبل مائة عام أو ألف عام . فليس فضل إديسون فى زماننا أنه يعرف فى علم الضوء وعلم الصوت ما ليس يعرفه أبناء عصره ، ولكنما فضله أنه نابغ وهم غير نابغين ، فأفاد بالعلم اليسير ما لم يفده الآخرون بالعلم الغزير ، وظلت المسافة بينهم وبينه فى النبوغ كالمسافة بين ارخميد ومن عاصروه من غير النابغين ، وإن اختلف العصران فى شيوع العلم وكثرة المتعلمين

يقول الأستاذ الفاضل : « مقياس النابغة فى نظرى أن يفوق أهل زمانه ويسبقهم فى فنه أو علمه أو أدبه حتى لا يدركوه إلا بعد أزمان ، وعلى مقدار هذا السبق يكون النبوغ . فسيبويه نابغة فى النحو ، لأنه رأى من قواعده ما عجز أهل زمانه عن النظر إليه »

وأنا أقول كما يقول الأستاذ : إن النابغة يفوق أهل زمانه فى معرض من معارض العلوم والفنون ، ولكنى لا أقول إن عصرنا لم ينجب أمثال سيبويه ، بل أقول إن سيبويه لو عاش فى عصرنا لما فاق نوابغه الأحياء ، وإن نوابغنا الأحياء لو عاشوا فى عصره لما قصروا عن شأوه ، لأن الملكات التى تعرف وحدة الأسماء والأفعال بين لغات أوربا ولغات آسيا لا تقل عن الملكات التى تعرف الوحدة أو الاختلاف بين قبيلة وقبيلة من أبناء البادية ، لا لأن الأمر يرجع إلى كثرة المتعلمين عندنا وقلة المتعلمين قبل نيف وعشرة قرون

وعندى أن المعاصرين ينظرون إلى نوابغهم وأبطالهم كما كان الأقدمون ينظرون إلى النوابغ والأبطال فى عصورهم إلا من كان منهم موسوماً بسمة الدين أو محوطاً بهالة الايمان . فالاستاذ يقول إن نابليون ظهر « فاستعبد الناس وأجرى الدماء أنهاراً وقلب الممالك رأساً على عقب ودوخ الدنيا فكان نابغة حقا فى ناحية . وبيننا الآن فى عصرنا من هم أعلم منه بفنون الحرب ومن هم أقوى منه إرادة وأبعد نظرا ، ولكن من الصعب أن نسميهم نوابغ ، لأن الناس ليسوا مغفلين كما كانوا أيام نابليون ، ولأنه وحده كان هو القاهر المريد ومن حوله كانوا المنفذين المأمورين ، فظهر ولم يظهروا ، ونبغ ولم ينبغ بجانبه إلا قليل »

فليت الأمر كما يبشرنا الأستاذ من هذه الناحية ؛ إنما الواقع أن أحداً من أبناء القرن الثانى عشر لم يناد بأن الأمبراطور معصوم كما ينادى الفاشيون من أبناء القرن العشرين بعصمة « الدوتشى » ، وطاعته بغير تفكير ولا امتعاض

والواقع أن نابليون لم يجسر يوماً على صنيع كالذى صنعه « الفوهرر » قبل ثلاث سنوات من « تطهير » البلاد بلا محاكمة ولا سؤال

وقد كان «لفين» ينحى على القديسين ، ولا يعترف للعظماء بأثر فى توجيه التاريخ إلى الأثر الذى يعترف به الشيوعيون ، فلما مات أقاموا له ضريحاً لم يحلم به كاهن ولا راهب فى عهد القياصرة أو عهد الكنائس والقديسين

وإننا لنسمع كل يوم عن الألوف التى تندفع حول نوابغ الصور المتحركة للظفر بتوقيع بطاقة أو صورة شمسية ، كما نسمع بالألوف التى تندفع من أجل هذا حول أبطال الألعاب الرياضية وأبطال السباحة والطيران وأشباههم من أصحاب الشهرة فى كل ميدان يتصل بالجماهير . أما العلماء والأدباء فمن نبغ منهم واشتهر فليس نصيبه من الاعجاب والجزاء بأقل من نصيب أمثاله قبل أجيال وأحقاب ، ومن لم ينبغ ولم يشتهر فله قرناء يماثلونه بؤسا وغبنا وشظفا فى أقرب العصور وأبعد العصور

لا ، بل نحن لا نستثنى أصحاب المكانة الدينية على اطلاق الاستثناء ، فما يربحه الدعاة باسم الدين اليوم لا يقل عما كانوا يربحونه فى الأيام الخالية ؛ والثقة بأغاخان اليوم وهو يعيش فى أوربا عيشة المترفين المتطلقين لا تقل عن الثقة بإمام زاهد عاكف على العبادة كان يعيش فى صومعته قبل عصر الكشف والاختراع

ولم ننفرد نحن باكبار البعيد فى الزمان أو المكان وترجيحه على أنداده وقرنائه الذين نراهم رأى العين ونعرفهم بالمصاحبة واللقاء ، فقديما كانوا يقولون إن زامر الحى لا يحظى باطراب ، وقديما كان الجاحظ يكتب الرسائل وينحلها الكتاب الأسبقين ليحظى بالاصغاء والتقريظ

وأحسب أن ايثار الماضى على هذا النمط له علة شائعة بل علل شائعات لا تنحصر فى وقت ولا يخلو منها قبيل

فالماضى يشبه المثل الأعلى لأنه غائب عن الانظار كالمثل الأعلى فى هالاته وخيالاته ، أما الحاضر فهو كالواقع المحسوس الذى نحب أبداً أن نتجاوزه ونطمح إلى ما وراءه

ولقد كان المشركون ينكرون النبى عليه السلام ولا ينكرون منه إلا أنه « يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق » . . ترى هل كان الأنبياء فيما مضى لا يأكلون طعاما ولا يمشون فى سوق ؟ كلا بل كانوا يأكلون ويمشون ، ولكنهم بعدوا واحتجبوا فخيل إلى غير معاصريهم أنهم مختلفون

ومن العلل التى تجنح ببعضهم إلى تهيب « السلف الصالح » أننا ننظر إليهم كما ننظر إلى الآباء والأجداد ، كأنهم كبار ونحن صغار ، لأنهم ولدوا قبلنا بمائة عام أو مئات من الأعوام ، وينسى المتهيبون أن السابقين كانوا أطفالا فى سن الطفولة وأننا سنصبح شيوخا مع السنين أو نربى فى الشيخوخة على اولئك الآباء والأجداد

ومن تلك العلل ما أومأنا اليه فى مقالنا الأول عن سهو الذين يقارنون بين الماضى والحاضر فيجعلونهما كفتين تتساويان فى نطاق الزمان والمكان ، مع أن الحاضر زمن واحد والماضى حاضر قد تكرر عشرات ومئات

وعندنا نحن الوارثين للثقافة العربية سببان آخران لا يلحظان بهذه القوة فى جميع الشعوب : أحدهما أن العربى يعتز بالأنساب وينوط الفخار كله بماضيه ، لأنه سلالة من القبائل التى تغلب فيها العصبية وترسخ فيها الاصول

والثانى أن الماضى أقرب إلى منشأ الدين ، فيخيل الينا أن الأقدم فالأقدم هو الأصلح فالأصلح والأعلم فالأعلم ، وإن لم تدلنا الدلائل على اطراد هذا القياس

* * *

تلك الأسباب كلها خليقة أن تضاعف احتراسنا كلما عمدنا إلى الموازنة بين حاضر وغائب وقريب وبعيد . فهى صنجة تؤخذ من كفة الأقدمين وتضاف الى كفة المحدثين فى ميزان الانصاف . ومما لا شك فيه أن ملكات النبوغ لا تقل فى عصرنا بل هى أحجى أن تزيد وتنشط ، بل هى قد زادت ونشطت فعلا باتساع مجال السعى والمنافسة والتفكير والاستنباط ؛ ومما لا شك فيه أن الاقدمين لم ينظروا الى معاصريهم إلا كما ننظر نحن إلى معاصرينا ، وأنهم لم يشعروا قط بتلك المهابة التى نضفيها عليهم الآن ولا بذلك الترجيح الذى نمحضهم إياه . أما أنهم كانوا يرون نوابغهم وأبطالهم

كما نراهم الآن فذلك ما نخالف فيه الاستاذ لأنه خلاف المعهود والمروى والمسطور . وهبهم أكبروا معاصريهم لأنهم قلائل ، وأصغرنا معاصرينا لانهم كثيرون لا نادرون كما يقول الأستاذ الفاضل ، فانما يكون ذلك كالذهب الذى يكثر تداوله فيرخص سعره وهو ذهب لاشك فيه ، وانما يكون النبوغ نبوغا ولا يكون شيئا آخر مهما يكن حظ الناس من التعليم ، لأنه ملكة فى الطباع لايختلف كنهها وإن اختلفت أنظار الناس اليها ، ولا تزال الانسانية بحاجة إلى الكثير منهم والقليل

وخلاصة القول أننا نستطيع أن نقول مع الاستاذ الكبير إن النبوغ فى عصرنا كثرة لاندرة ، ولا نستطيع أن نقول معه ان المسافة بين النابغ وسواد الناس تقترب فى العصر الحديث ، لان ازدياد التعليم يزيد نصيب المتعلم من المعرفة ولا يخوله فطرة أخرى ولا ملكة مطبوعة كتلك التى يخلق بها النابغون الممتازون

عباس محمود العقاد

العلم والوطنية

الى الأستاذ توفيق الحكيم

من الأستاذ أبى خلدون ساطع الحصرى
مدير دار الآثار ببغداد

قرأت الكلمة الرشيقة التى دبجتها يراعتكم الفنانة ، فى صدد الرد على استفتاء الرابطة العربية حول مسألة « العلم للعلم أم العلم للوطنية ؟ » .

قرأتها بامعان واهتمام ، وأعجبت بالأخيلة والتشبيهات التى تحلت بها ؛ غير أنى لم أقتنع بصحة الأفكار والآراء التى تضمنتها

لقد قلتم بصيغة التأكيد الحاسم : « العلم والوطنية لايمكن أن يتفقا ... »

إذن فأنتم تعتقدون أن العلم والوطنية مختلفان ؛ وزيادة على ذلك تقولون بأن اختلافهما هذا سيستمر إلى الأبد ، ولن يزول فى يوم من الأيام ...

على أنى أعترف أيها الأستاذ بأننى من الذين يدينون بدين العلم والوطنية فى وقت واحد ، ومن الذين يقولون على الدوام بوجوب « نشر الروح العلمى » من جهة ، و « تقوية الشعور الوطنى » من جهة أخرى

أفلا تعذروننى إذن إذا ما اعتبرت نظريتكم هذه من الخطورة بمكان ، فأخذت على عاتقى مناقشتكم فيها مناقشة شاملة لاظهار الحقيقة التى أعتقدها ؟

* * *

تقولون ، أيها الأستاذ ، بأن « العلم والوطنية لا يمكن أن يتفقا » ، وتحاولون أن تبرهنوا على هذه الدعوى بثلاث قضايا :

« إن الوطنية هى الأنانية فى المجموع » ،

« والأنانية عمياء » ،

« والعلم هو البصر – المنزه – بحقيقة الأشياء ... »

إننى لا أود أن أبدأ المناقشة بالبحث عن مبلغ صحة هذه القضايا ؛ بل أود أن أسلم بها مؤقتاً ، لأرى هل تكفى للدلالة على صحة رأيكم فى هذا الصدد ...

تقولون : « إن الوطنية هى الأنانية فى المجموع » ، فهل تستطيعون أن تقولوا – فى الوقت نفسه – بأن العلم ينكر الأنانية على الاطلاق ، ولا يعترف بأثرها فى حياة الحيوان والانسان ؟

تقولون : « إن الأنانية عمياء » فهل تستطيعون أن تقولوا – فى الوقت نفسه – إن العلم يخالف كل ما هو أعمى ؟ أفتنكرون أن القوى الطبيعية أيضاً عمياء ؟

تقولون : « إن العلم هو البصر المنزه بحقيقة الأشياء » ، فهل تستطيعون أن تأتوا ببرهان يدل على أن الوطنية « خارجة عن حقائق الأشياء » ؟ ...

كلا .. إن الوطنية قوة اجتماعية فعالة ، ليس إلى إنكارها من سبيل ... آثارها تظهر دائما ، من خلال الوقائع التاريخية والحادثات الاجتماعية ، بكل وضوح وجلاء . فهى تدخل لذلك فى نطاق « حقائق الأشياء » ، كما تدخل فيه سائر القوى والمؤثرات الطبيعية ، كالوراثة والمناعة والمغناطيسية والجاذبية ...

فاذا أردنا أن نجعل الوطنية موضوع بحث علمى ، يجب

أن ندرسها كما ندرس الحادثات والقوى الطبيعية بوجه عام ، والحادثات والقوى الاجتماعية بوجه خاص ...

ولا جدال فى أن العلم يدرس الكون وحادثات الكون « بحياد تام » . يدرس خواص الأشياء ، ويتتبع سير الحادثات ويتحرى أسبابها ، ويستقصى قوانينها ؛ وقد يتنبأ فى بعض الأحوال بمستقبلها أيضاً ، استنادا إلى القوانين التى اكتشفها والعوامل التى أظهرها ... إنه يفعل كل ذلك ، دون أن يقدم على استحسان أو استهجان الحقائق الثابتة بوجه من الوجوه ، دون أن يتأثر بموافقة أو مخالفة تلك الحقائق لمصالحنا المادية أو لنزعاتنا الفكرية بصورة من الصور . لأن مهمة العلم تنحصر فى معرفة حقائق الأشياء واكتشاف قوانين الحادثات ، ولا يتعدى . ذلك إلى تحبيذ أو تقبيح تلك الحقائق أو استحسان أو استهجان تلك القوانين ...

لنا أن نتخيل كوناً غير هذا الكون ، ولنا أن نتصور « مجتمعاً غير هذا المجتمع ، ولنا ألا نكتفى بالتخيل والتصور بهذه الصورة ، بل نوصل الأمر إلى درجة التمنى ، فنتمنى أن يتحول الكون إلى الحالة التى تخيلناها ، وأن يتطور المجتمع إلى الهيأة التى تصورناها . ولنا أن نذهب إلى أبعد من ذلك أيضاً : لنا أن نعتبر ما تخيلناه وتصورناه فى هذا الباب مثلا أعلى نسعى إلى تحقيقه بنشاط وحماس ، وهدفاً أسمى نتجه نحوه بقوة واندفاع ... لنا أن نفعل كل ذلك ، على أن نعلم فى الوقت نفسه ، بأن تفكيرنا وعملنا فى هذا السبيل يكون من قبيل الشعر أو الفلسفة أو السياسة ... فلا يدخل فى نطاق « البحث العلمى » بوجه من الوجوه . .

لكم ، أيها الأستاذ ، أن تتمنوا زوال الأنانية من الأمم ؛ ولكم أن تصبوا إلى رؤية مجتمع تتغلب فيه مصلحة الدول على مصلحة الدولة الواحدة ، ولكم إذا شئتم أن تقوموا بدعاية ترمى إلى تضحية مصلحة الدولة الواحدة إلى مصلحة سائر الدول . . فانى لا أناقشكم فى كل ذلك فى هذا المقام ؛ غير أنى أقول بأنه لا يحق لكم بوجه من الوجوه أن تعزوا تمنياتكم ونزعاتكم هذه إلى « العلم » فتقولوا « العلم لا يتفق مع الوطنية »

فان العلم لا يختلف الآن إلا مع ما يخالف الواقع . . وإننا مهما تعمقنا فى تحليل طبيعة العلم من جهة وطبيعة الوطنية من جهة أخرى لا نجد بينهما ما يستوجب الاختلاف بوجه من الوجوه .

***

بعد أن وصلنا إلى هذه المرحلة من المناقشة أرى أن نترك هذه « الأحكام الآنية » جانباً ، لنستقرىء الوقائع التاريخية فننظر فيما إذا كان العلم والوطنية قد اتفقا أم اختلفا فعلا فى مختلف الأجيال ...

إننى أستطيع أن أذكر وقائع تاريخية كثيرة تشهد على « اتفاق العلم مع الوطنية » و « خدمة العلم للوطنية » بصورة فعلية ، لعل أقدم هذه الوقائع يعود إلى عهد « أرخميديس » الشهير ، ويتعلق بقصة مقاومته للرومان . فان هذا العالم الكبير الذى يعتبر من آباء علم الميكانيك ، والذى يتردد اسمه حتى على ألسنة طلاب المدارس الابتدائية فى دروس الطبيعة والأشياء ، هذا العالم الكبير لعب (بعلمه) دوراً هاماً فى تاريخ وطنه سيراقسة ، فعند ما حاصرها الرومان . وضع كل ما عنده من علم وقوة تفكير واختراع إلى خدمة وطنه . فاستعمل المنجنيقات والمرايا المحرقة لتخريب اسطول المحاصرين ، فمكن المدينة من الدفاع عن نفسها دفاع الأبطال . إذن ، فالعلم والوطنية اتفقا فى نفسية أرخميديس فى أمر الدفاع عن الوطن المحصور ، ولم يختلفا بوجه من الوجوه

ان الثورة الفرنسية أيضا تعطى لنا مثالا بارزاً « لتعاون العلم والوطنية » : عند ما تألبت الدول الأوربية على فرنسا بقصد خنق الثورة فى مهدها ، جابهت الدولة المذكورة مشكلة كبرى ، كادت تقضى عليها لولا مساعدة العلم والعلماء لها ، فان الحصار الذى أحاط فرنسا بالنار والحديد من كل الجهات ، حرم رجال الثورة إمكان استيراد المواد الأصلية الضرورية لصنع الصابون والبارود والمدافع والأسلحة ، عندئذ فكرت لجنة الدفاع الشعبى فى الاستفادة من علماء الكيمياء ، فاستنهضت هممهم لتخليص الوطن من هذه المحنة .

ومن هؤلاء العلماء « برتوله » و « فوركروا » وجهوا أبحاثهم العلمية وجهودهم الفكرية ، نحو إيجاد الطرق التى تساعد على إحضار المواد المذكورة بصورة صناعية من المواد الموجودة داخل البلاد ، فنجحوا فى مسعاهم هذا وخدموا وطنهم بذلك أجل الخدمات .

وأما بعد ذلك فنستطيع أن نقول : إن « خدمات العلم للوطنية » أصبحت من الأمور الاعتيادية التى يصعب احصاؤها فان صحائف تاريخ العلوم من جهة وتاريخ الدول من جهة أخرى مملوءة بأمثلة دالة على ذلك ، ولا سيما ماحدث منها خلال الحرب العالمية .

ربما تقولون أيها الاستاذ ، « إن هذه كلها من الأمور التطبيقية » وستكررون فى هذا المقام رأيكم فى « العلم وتطبيق العلم » لأنكم قلتم فى كلمتكم « فالعلماء الحقيقيون لا يطبقون العلم ، إنما يعيشون حياتهم للمعرفة المجردة لا يبتغون من ورائها غير مجرد الدنو منها . تلك لذتهم الكبرى ، أما رجال الأعمال الذين يأتون بعد ذلك لاستغلال نتائج هذا العلم فليسوا من العلماء وإن درسوا العلم دراسة عميقة »

فاسمحوا لى أن أقول : إن الطبيعة بعيدة عن مثل هذه التقسيمات القطعية فى أمر « العلوم وتطبيقاتها » فان استغلال نتائج العلوم — بعد اكتشافها — لا يكون دائما من عمل رجال آخرين غير العلماء المكتشفين ، بل كثيراً ما نشاهد فى تاريخ العلوم أن العالم الباحث ، بعد أن يتوصل إلى معرفة الحقائق واكتشاف القوانين ينتقل بنفسه إلى التفكير فى النتائج المأمولة والفوائد المتوقعة منها ، ويبحث عن تطبيقاتها فهل يحق لنا — فى هذه الحالة — أن نخرجه من عداد « العلماء » بحجة أنه لم يكتف باكتشاف الحقيقة ، بل تعدى ذلك إلى التفكير فى الاستفادة منها ؟ فهل يحق لنا مثلا ألا نعتبر أرخميديس من « العلماء الحقيقيين » بالرغم من نظرياته واكتشافاته العلمية الكثيرة — لمجرد إقدامه على تطبيق بعض القوانين التى اكتشفها ؟ وهل يحق لنا أن نخرج « برتوله » من عداد العلماء — بالرغم من نظرياته وقوانينه المشهورة — لمجرد عدم اكتفائه باكتشاف تلك القوانين — وإقدامه على توجيه بعض أبحاثه العلمية إلى الاتجاه الذى تتطلبه منه خدمة الوطن ؟ .

كلا ... إن مبدأ « العلم للعلم » يتطلب البحث عن الحقائق لنفسها ولو لم ينتظر فائدة من وراء معرفتها ، غير أنه لا يتطلب الامتناع عن الاستفادة منها .

إن هذا المبدأ يتطلب الاعتراف بالحقائق الثابتة ، مهما كانت نتائجها ؛ غير أنه لا يتطلب الامتناع عن توجيه الأبحاث العلمية نحو الحقائق التى ينتظر الحصول على فائدة وطنية من وراء معرفتها .

***

هذا وإتماماً لاستقراء الوقائع التاريخية ، يجب علىّ أن أشير إلى بعض الحوادث التى تدل على حدوث شىء من المخالفة والمشادة بين رجال العلم ورجال الوطنية فى بعض الأحوال :

إن تاريخ الثورة الفرنسية يعطينا مثالا بارزاً لذلك : فان رجال الثورة أعدموا « لافوازيه » Lavoisier الذى يعتبر مؤسس علم الكيمياء الحديث ، و « بايلى » Bailly الذى اشتهر بأبحاث فلكية هامة ؛ وسجنوا « كوندورسه » Condarcet الذى كان من كبار المفكرين . فاضطروه الى الانتحار تخلصاً من المقصلة والعذاب ...

كما أن الانقلاب الألمانى الأخير أعطانا مثالا جديداً لذلك : فان الحكومة الوطنية ، طردت من البلاد عددا غير قليل من العلماء ، وعلى رأسهم « إينشتاين » الشهير ...

غير أنه يجب علينا أن نلاحظ أن هذه الوقائع لا تدل على خصام بين العلم والوطنية ، من حيث الأساس . لأن العالم قلما يتفرغ إلى الأبحاث العلمية تفرغاً مطلقاً ، فانه لا يتجرد عادة عن الحياة الشخصية ، بل كثيرا ما يقوم ببعض الأعمال السياسية أيضاً ، كما أن تفكيراته لا تكون علمية فى كل الموضوعات ، إذ أنه قد يفكر كما يفكر سائر الناس فى المسائل التى تخرج عن نطاق اختصاصه ، ولا سيما فى الأمور التى تدخل فى ساحة الدعايات الحزبية والأعمال السياسية . فاذا ما تحدث مخالفة بينه وبين رجال السياسة الوطنية ، يكون قد حدث ذلك بالرغم من علمه لا بسبب علمه .

فان « لافوزييه » مثلا كان من النبلاء الذين يحملون لقب « المركيز » كما أنه كان من « الملتزمين » الذين كانوا يشتغلون بجباية الضرائب من الناس . فاذا ما اتهمه رجال الثورة الفرنسية - بحق أو بغير حق - بالخيانة للوطن ، وحاكموه فأعدموه ، انما كان ذلك من جراء صفاته وأعماله هذه ، لا من جراء أبحاثه وآرائه العلمية .

وكذلك الأمر فى « إينشتاين » : فان أبحاثه العلمية ونظرياته الفلسفية لم تجرده عن النزعات الطائفية ولم تبعده عن الأعمال السياسية . فاذا وجد رجال الحكومة الوطنية الالمانية — بحق أو بغير حق — فى سلوكه وسلوك طائفته ما يضر بسلامة الوطن ، كان ذلك من جراء أعماله وأعمال طائفته السياسية ، لا من جراء أبحاثه وآرائه العلمية .

***

وربما كان من المفيد أن نذكر رأى بعض العلماء لإيضاح هذا البحث أكثر مما تقدم . وربما كان رأى « باستور » الشهير من أبلغ الشهادات فى هذا الباب :

إن هذا العالم الذى يعتبر بحق من العلماء الذين انتظمهم الروح العلمى بأكمل معانيه ، والذى قام بسلسلة أبحاث تعد بحق من أبرز وأنجع الأمثلة للطريقة التجريبية ... هذا العالم الكبير كان وطنياً متحمساً طول حياته ؛ وقد قال فى خطبة بليغة ألقاها فى أحد المؤتمرات الأممية :

« لا وطن للعلم أو بالأحرى ، وطن العلم يشمل العالم بأجمعه ومع هذا لكل عالم وطن وعلى كل عالم أن يهتم بكل ما يخدم مجد وطنه فنى كل عالم حقيقى كبير تجدون دائماً وطنياً كبيراً » .

***

والآن بعد الانتهاء من هذه المناقشة ، اسمحوا لى أن أعود إلى إحدى القضايا التى كنت سلمت بها جدلا ، وهى أولى القضايا الثلاث التى سقتموها للبرهنة على عدم امكان اتفاق العلم والوطنية :

« الوطنية هى الأنانية فى المجموع » .

إننى لا أنكر صحة هذه القضية من حيث الأساس . غير أننى أرى من الضرورى أن نتبعها بقضية ثانية فنقول :

« الوطنية هى الأنانية فى المجموع ، غير أنها التضحية والايثار فى الفرد ... » .

نعم ان الوطنية هى التضحية والايثار - بالنسبة إلى أفراد البشر ، وإن كانت من قبيل الأنانية بالنسبة إلى الكتل البشرية . ونستطيع أن نقول : انها أرقى أشكال التضحية والايثار . فان مظاهر التضحية والايثار لا تتجلى فى مجال من مجالات أعمال الانسان بالتنوع والسمو والقوة التى تتجلى بها فى مجال الوطنية . وأما مظاهر الايثار التى تنشأ من الشعور الأممى فإنها لا تذكر بجانب ذلك ...

اننى لا أود أن أتوسع فى هذه المسألة الآن غير أنى أود أن أختم هذه الرسالة باحدى الكلمات التى قالها جان جاك روسو بأسلوبه الخلاب :

« بعض الناس يحبون أبناء الصين ، وذلك لكى يتخلصوا من الواجبات الفعلية التى يتطلبها منهم حب أبناء وطنهم الأقربين » .

(بغداد) أبو خلدون

في التاريخ السياسي :

الحرب الأهلية الاسبانية

وخطرها على السلام

بقلم باحث دبلوماسي كبير

حينما اضطرمت الحرب الأهلية الاسبانية في أواخر يولية الماضي، لمحنا في حوادثها منذ البداية عوامل معركة دولية خطيرة وكنا يومئذ نتلمس القرائن والأدلة لتأييد هذا الرأي، لأن العوامل الدولية التي كانت وراء هذه المأساة لم تكن قد وضحت بعد بصورة جلية، بيد أنه لم تمض عدة أسابيع على ذلك، حتى تكشفت هذه العوامل واضحة، وحتى بدا أصبع إيطاليا وألمانيا ظاهراً وراء الثورة الاسبانية يذكي ضرامها ويمدها بكل صنوف المعاونة العسكرية والسياسية، وحتى بدت روسيا السوفيتية في جهة أخرى وراء الجبهة الجمهورية الاسبانية تؤيدها بكل ما وسعت وتمدها بالأسلحة والذخائر والفنيين، وحتى بدت انكلترا وفرنسا أيضاً من وراء الجبهة الجمهورية تمدها بعونها السياسي والأدبي. وآثرت انجلترا وفرنسا الأخذ بسياسة عدم التدخل في المشكلة الاسبانية ونجحتا في حمل الدول الأخرى أعني ايطاليا وألمانيا وروسيا والبرتغال على إقرار هذه السياسة، وتألفت لجنة عدم التدخل الدولية في لندن. وبينما كانت هذه اللجنة تسير في مباحثها وقراراتها ببطء وتسويف ظاهرين كانت المعركة الدولية في اسبانيا تتفاقم يوما بعد يوم ويتوالى نزول القوات الايطالية والالمانية في الثغور الاسبانية لتشد أزر الجبهة الثورية، وتتوالى الامدادات الروسية لتشد أزر الجبهة الجمهورية ويتسع تدخل ايطاليا والمانيا في اسبانيا نفسها، وفي جزر البليار ومراكش الاسبانية بشكل يزعج فرنسا وانكلترا. عندئذ خطت السياسة البريطانية خطوة أخرى واستطاعت بعد مفاوضات ومباحثات طويلة أن تحمل الدول الممثلة في لجنة عدم التدخل على إقرار مشروع دولي لرقابة الشواطئ والحدود الاسبانية وذلك لمنع الامدادات الأجنبية عن الفريقين المتحاربين، وتطبيق سياسة عدم التدخل بطريقة فعلية، وترك المشكلة الاسبانية يحلها الشعب الاسباني وحده، وبذلك تحصر الحرب في اسبانيا، ويحمى السلام الدولي من عواقبها.

ونفذ مشروع الرقابة الدولية منذ عدة أسابيع. واشتركت فيه انجلترا وفرنسا وايطاليا والمانيا والبرتغال، وحصرت الشواطئ والحدود الاسبانية على يد السفن الدولية والمراقبين الدوليين. ولكن الواقع أن إيطاليا والمانيا كانتا قد بعثتا إلى اسبانيا قبل تنفيذ مشروع الرقابة من القوات العسكرية والجوية لمعاونة الجنرال فرانكو زعيم الثورة الاسبانية ما اعتقدتا أنه كاف لاحراز الجبهة الثائرة النصر النهائي على الجمهوريين وإقامة الحكم الفاشستي المنشود في اسبانيا على أنقاض الحكم الجمهوري، بل ظهر أن إيطاليا وألمانيا لم تكفا عن إرسال الامداد حتى بعد أن نفذ مشروع الرقابة، على أن الرقابة الدولية أفادت في تضييق نطاق المعاونات الخارجية، وحصرت احتمالات الحرب الأهلية نوعا.

وفي أثناء ذلك حاولت السياسة البريطانية أن تتقدم خطوة جديدة في تصفية المشكلة الاسبانية، فقدمت إلى الدول اقتراحها بسحب جميع الجنود الأجانب من اسبانيا سواء منهم من يحارب مع الجنرال فرانكو أو مع حكومة مدريد؛ فرفضت إيطاليا النظر في الاقتراح، وأجابت الصحف الايطالية بأن الجنود الايطالية لن تغادر اسبانيا قبل أن يحرز الجنرال فرانكو النصر النهائي. والمعروف المحقق أن لايطاليا في اسبانيا جيشاً لا يقل عن مائة وعشرين ألف مقاتل، هذا عدا القوات الالمانية وهي تقدر بنحو ثلاثين ألفاً، وهذه القوى الأجنبية هي عصب الثورة الاسبانية وهي سند الجنرال فرانكو؛ وقد أبدت المانيا وايطاليا في غير فرصة سواء في التصريحات الرسمية أو عن طريق الصحافة انها لن تدخر وسعاً في تأييد الجنرال فرانكو حتى يحرز النصر النهائي، وحتى تقوم في مدريد حكومة فاشستية، ولم يبق ريب بعد أن الثورة الاسبانية إنما

هى محاولة عسكرية فاشستية تدبرها الفاشستية الايطالية والألمانية ، وأن الجنرال فرانكو إنما هو أداة هذه السياسة الأجنبية ؛ فالثورة الاسبانية تفقد بذلك كثيراً من صبغتها الوطنية ، وتفقد عطف الديموقراطية ، والعالم المتمدن الذى يعرف وسائل الفاشستية وأساليبها الهمجية وجنوحها إلى العنف والعدوان ، ويقدر خطرها على السلام العام

ولكن هل تنجح الفاشستية فى هذه المحاولة الدموية ؟ لقد مضى على الثورة الاسبانية التى دبرتها الفاشستية وسلحتها أحد عشر شهراً ، واستطاع الجنرال فرانكو بمؤازرة معاونيه الأجانب أن يستولوا على نصف الأراضى الاسبانية ؛ ولكنه لم يحرز حتى اليوم أى نصر حاسم ، بل فشل فى كل محاولة خطيرة قام بها لتحطيم قوى الجمهورية ، وكان مقدراً أن الثورة لن تستغرق فى تنفيذ برنامجها أكثر من عدة أسابيع ، ولكن مضت الأسابيع والأشهر ، وتحطم هجوم الجنرال فرانكو على مدريد ولقى الثوار أكثر من هزيمة شديدة أمام العاصمة ومزقت الوحدات الايطالية فى وادى الحجارة شر ممزق ؛ وعندئذ فكر الحلفاء فى مهاجمة ناحية أخرى من الجبهة الجمهورية ، فنظم فرانكو هجومه على بلادالباسك منذ أكثر من شهرين ، وحاول أن يطوقها من البر والبحر ؛ ولكن قوات الباسك خيبت آمال الهاجمين، وردتهم غير مرة ، وانتقم فرانكو وحلفاؤه من الجمهورية الصغيرة الباسلة بتخريب بلادها وضياعها ، وأحرق الطيارون الألمان المدن والقرى الباسكية من الجو بطريقة وندالية أثارت سخط العالم المتمدن وكان فرانكو يقدر أنه بحصار بلباو من البحر يمهد لافتتاحها بسرعة وأنه كما حدث من الهجوم على مالطة يستطيع الاعتماد على معاونة الغواصات الايطالية ، ولكن انجلترا التى خشيت على مصالحها ومناجمها العظيمة فى هذه المنطقة بعثت بوارجها الكبرى إلى مياه بلباو ، وأنكرت حق حكومة فرانكو فى محاصرتها وخرقت السفن الانكليزية الحصار وأمدت المدينة المحصورة بالأطعمة ، وعاونت على إخلائها من غير المحاربين ؛ ومازالت قوات الباسك تصمد للهاجمين وتكبدهم أفدح الخسائر، وان كان فى الانباء الأخيرة ما يدل على أن بلباو قد لاتستطيع المقاومة طويلا

° ° °

قلنا إن الفاشستية الايطالية تزعم أنها لن تتخلى عن الجنرال فرانكو حتى يحرز النصر النهائى ، وتزعم إيطاليا والمانيا معاً أنهما لن تسمحا ، باقامة حكومة بلشفية فى اسبانيا تهدد سلام غرب أوربا ؛ وهما تصفان حكومة اسبانيا الجمهورية بالحكومة البلشفية لأنها تستمد العون من حكومة موسكو ، وتلك دعاية مغرضة كما أسلفنا فى فرص سابقة ، فالجبهة الاسبانية الجمهورية هى جبهة الشعب الاسبانى التى تحاول الفاشستية تحطيمها على يد الجنرال فرانكو ، وإذا كان فى الجبهة الجمهورية عنصر شيوعى فهو أقلية سياسية ، كما هو الشأن فى معظم الدول الديموقراطية ؛ وإذا كانت الجبهة الجمهورية تعتمد على مؤازرة روسيا السوفيتية ، فلأنها الدولة الوحيدة التى سارعت لنجدتها فى محنتها ، ولأن روسيا ليست لها مطامع استعمارية فى اسبانيا بل يحدوها إلى هذا العون معركة المبادىء والمثل ، فهى فى أسبانيا تضرب الفاشستية ألد وأخطر خصومها على أنه إذا كانت الفاشستية تزعم أنها لن تتخلى عن فرانكو حتى يحرز النصر النهائى ، فان السياسة البريطانية من جهة أخرى تبدى صراحة أنها لن تسمح بانتهاك استقلال اسبانيا أو الاعتداء على سلامة أراضيها ؛ وهذا ما صرح به أخيراً مستر أيدن وزير الخارجية البريطانية فى مجلس العموم ، ومعنى ذلك أن بريطانيا لن تسمح بفوز الجنرال فرانكو ، لأن هذا الفوز الذى تدعمه الحراب الأجنبية يعقبه تحقيق بعض المطامع الايطالية فى جزر البليار وربما فى مراكش الاسبانية ؛ وانكلترا مع تمسكها بسياسة الحيدة وعدم التدخل فى المسألة الاسبانية ، لا تخفى عطفها على حكومة بلنسية ، وفى ذلك توازرها فرنسا بل ربما ذهبت فرنسا إلى أكثر من هذا العطف فى معاونة الجبهة الجمهورية ، وإذا كانت انكلترا وفرنسا تقفان فى الميدان الدولى إلى جانب أسبانيا الجمهورية ، فان ذلك لا يرجع إلى لونهما الديموقراطى ولا إلى معركة المبادىء فقط ، بل يرجع

بالأخص إلى خوفهما من غلبة الفاشستية فى أسبانيا، وبما تهدد به مصالحهما الاستعمارية ومواصلاتهما فى غرب البحر الأبيض المتوسط.

ومن جهة أخرى فان انكلترا وفرنسا تخشيان على مصير السلام من تفاقم الحوادث الاسبانية. ولقد تجلى هذا الحرص على السلام فى حادث البارجة الألمانية دويتشلاند، فقد ألقت طيارات حكومة بلنسية القنابل على هذه البارجة أثناء رسوها فى ميناء أبيزا بجزيرة ميورقة فقتلت من بحارتها خمسة وعشرين وجرحت عدداً آخر؛ وثارت ألمانيا لهذا الاعتداء فلم يمض يومان حتى ضربت بوارجها ثغر ألمرية الاسبانى على حين فجأة ضرباً شديداً فقتلت وجرحت من أهلها المسالمين مئات وخربت قسما كبيراً منها؛ وعلى أثر ذلك أعلنت ألمانيا وإيطاليا انسحابهما من لجنة عدم التدخل حتى توضع الضمانات الكفيلة بحماية بوارجهما؛ وكان لهذا الاعتداء الذى يشبه أعمال القرصنة من جانب البوارج الألمانية وقع عميق فى الأوساط الدولية، لأنه حتى مع التسليم بأن ألمانيا قد أعتدى عليها فى حادث البارجة دويتشلاند، فانها لم تتقدم بطلب الترضية الودية ولم تقدم إلى حكومة بلنسية إنذاراً بها كما يقضى بذلك القانون الدولى، ولم يسبق فى قانون الأمم ان اعترف بحق الانتقام من المدن الآمنة دون أن تكون هناك حرب شرعية بين الخصوم. خصوصاً إذا وقع الانتقام على النساء والأطفال كما حدث فى ضرب ألمرية. ومن الغريب أن تنفرد ألمانيا بمثل هذا التصرف لاعتداء وقع على إحدى سفنها تبرره حكومة بلنسية بوجود هذه السفينة فى إحدى الموانى التى بيد خصومها الوطنيين، مع أن مثل هذا الاعتداء قد وقع من قبل فى أكثر من فرصة على السفن الانكليزية ولم تندفع فى مثل هذا الانتقام الوحشى

على أن انجلترا رأت مع ذلك أن تتفادى عواقب هذا المشكل الخطر، وأن تعمل على رد ألمانيا وايطاليا إلى لجنة عدم التدخل، فوضعت مشروعاً جديداً يقضى بتعيين مناطق أمينة تستطيع السفن المشتركة فى المراقبة أن تلجأ إليها ويحترمها الفريقان المتحاربان، ويعترف المشروع فوق ذلك بحق الدفاع الشرعى للسفن التى يعتدى عليها وقت الاعتداء فقط، ولكن الاجراءات اللاحقة تكون موضع بحث بين الدول، وتدل الأنباء الأخيرة على أن ألمانيا وإيطاليا قبلتا هذا المشروع، وقررتا العودة إلى لجنة عدم التدخل، وبذلك تكون السياسة الانكليزية قد استطاعت أن تتفادى عواقب هذا الاحتكاك الخطر بين ألمانيا وحكومة بلنسية.

على أن المأساة الاسبانية ما زالت مفعمة بالأخطار والمفاجآت. والخطر فى هذه المأساة هى صبغتها الدولية، التى أشرنا إليها. فالصراع الدولى بين الجبهتين الاوربيتين الفاشستية والديموقراطية مازال قائماً، وإذا لم تبذل الدبلوماسية الأوربية جهوداً جدية لإخراج القوات الأجنبية من اسبانيا، وترك اسبانيا تقرر مصيرها بيدها، فسوف تبقى المشكلة الاسبانية خطراً دائماً على السلم الأوربى.

***

في الأدب المقارن

الحكمة

في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

يولد المرء جاهلا ثم لا تزال التجارب تبصره بحقائق الحياة ولا يزال الدهر يعلمه ويؤدبه ، ولا يزال هو بثاقب فكره ، يتعظ بماضيه وينتفع بمشاهداته ، ويصوغ من جزئيات التجارب التي يمر بها كليات يلخص فيها نواميس الحياة وطباع الأشياء ، التي يجدر بالعاقل أن يسايرها ويحتال لها ، لا أن يصادمها ويجرى على غير سننها ، وتلك هي الحكم التي هي لباب التجارب وثمار المعرفة ، والتي يغتبط الأديب أي اغتباط حين يستخلص عصارتها من مرير الشدائد وعصيب الأزمات ، ويتجلى له ضياؤها بعد أن تنقشع غيوم المطامع وعواصف المخاوف ، ويتوارثها الناس جيلا بعد جيل ، وتتشكل مع اختلاف بيئاتهم وتقاليدهم ، ويشدو بها الصغار وهم ناشئون ولا يعرف صدقها إلا الكبار ، بعد أن يخوضوا أتون التجارب الذي ينضج النفوس

فالحكمة خلاصة التجربة العملية ، ولا تقرأ في الكتب ولا تؤخذ عن المؤدبين . ومن ثم يستوى فيها الخاصة المثقفون والعامة الأميون ، إذ كان كلاهما يستقي من معين الحياة المشهودة ؛ وتذيع بين العامة أمثال وحكم هي غاية في الصدق ونفاذ النظرة وبلاغة التعبير . وقد يطابق بعضها أمثال الخاصة والحكماء في كتبهم ؛ وتدل تلك الحكم السائرة بين الشعب على الكثير من أخلاقه وأعماله ، من سعي وتوان ، ووقار واستهتار ، وامعان في الحروب واستراحة إلى السلم والدعة ، ومن ثم نرى كثيراً من الأمثال المتخلفة عن جيل الانحطاط الماضي ، رغم صدقها وعمقها مصوغة في أبذأ لفظ وأخش صورة ، ونرى كثيرا منها يحث على القناعة والتواكل والقعود .

ومن الحكم ما ترسل موجزة مستقلة كأنها القضايا المنطقية مبدوءة ببعض حروف الشرط أو أسمائه ، ومنها ما تصاغ في قصة محكمة ذات مغزى ، ومن تلك القصص ما ينسب إلى حكيم من الأقدمين كلقمان ، أو إلى شخص خيالي مثل جحا الذي صاغ العامة حوله قصصا بالغة غاية الحكمة والمتعة والفكاهة ، ومن تلك القصص ما يجرى على ألسنة الحيوان ، ويقوم الأسد فيها بدور السلطان ويلعب الثعلب دور المكر والاحتيال ، ويمثل الذئب دور الغدر والافتئات ، وقد كان للأمم القديمة كالمصريين والفرس والهنود ، من كل هذه الضروب حظ وفير ، وفيها يبسط الحكماء المجربون لأبناء جلدتهم ثمار تجاربهم ، ويحضون على حسن المعاملة ويدعون إلى الفضيلة .

والشرق ، مهد المدنيات القديمة والامبراطوريات العظيمة ، والملكيات المطلقة ذات الحول والأبهة والبذخ ، والموارد الواسعة والكنوز الطائلة ، هو مهد الحكمة ومطلع الحكماء والأنبياء ، فيه تتجلى طباع الأشياء على جهارتها ، ويتجاور البذخ المفرط والبؤس المرمض ، وتتابع السعود والنحوس ، وتتقلب الأيام والدولات وتعقب عصور الرخاء والازدهار عهود الشدائد والادبار ، ومن كل ذلك تستخلص عبر الحياة وعظاتها ، ويتجلى لذوى النفوس العالية غرورها وبهارجها ، وتنصرف همة الحكماء والفضلاء إلى هداية مواطنيهم إلى سبيل الخير والسلامة وتلقينهم كيف يعيشون في أمن من جور الغاشمين وبطش الأقدار ويسعون جهدهم لتخفيف ما حولهم من آثار البؤس والبلاء ، وإصلاح مايرون من أسباب الفوضى والفساد ، وهكذا كان يظهر المصلحون والأنبياء بين اليهود والهنود وغيرهم من أمم الشرق ، بين الفترة والفترة .

وللحكمة الصادقة المصوغة في اللفظ البليغ المحكم مكانها في أدب كل لغة : ففي كل أدب ما لا يعد من الحكم المتواترة يقتبسها الأدباء في مواطنها ، وقد نسيت أسماء قائليها وضاعت نسبتها وصارت من تراث الأدب المشاع ، وفيه كذلك ما لا يعد من آثار الشعراء والكتاب التي أساسها الحكمة وقوامها خلاصات التجارب التي عركتهم ؛ وفي الأدبين العربي والانجليزي تراث حافل من الحكم والامثال ، وفي كل منهما أدباء اشتهروا خاصة بصوغ الحكم وجرت آثارهم على الأقلام والأفواه ، لما تمتاز به من صدق النظرة وشمول الفكرة وإيجاز اللفظ .

ففي الانجليزية اشتهر شكسبير أولا وبوب ثانياً بروائع حكمهما . وسارت كثير من أبياتهما مسير الأمثال ، لما امتاز به كلاهما من التمكن من اللغة وبلاغة الأداء ووجازة التعبير ، رغم اختلافهما فيما عدا ذلك من نظرة إلى الحياة ومذهب في الفن ؛ وندر من كبار أدباء الانجليزية من لم يسر له مثل أو أكثر فيما توفر عليه من موضوع كالطبيعة والجمال والاجتماع والمرأة وهلم جرا ومن الانجيل سرت في اللغة الانجليزية المكتوبة والمتكلمة أمثال

وحكم عديدة ، لا تزال تحمل طابعها الاسرائيلى وتدل باسماء أعلامها ومواطنها على نشأتها الشرقية ؛ وسرت فى الانجليزية كذلك أمثال عديدة من الاغريقية واللاتينية يترجمها الأدباء إذا استعملوها وقد يثبتونها فى لغتها الأصلية .

بيد أن ذلك هو كل ما هنالك ، والحكمة فى الانجليزية نادرة إلى حد بعيد ، وهى لم تكن من مطلوب أدبائها ولا من هم شعرائها يتوخونها عمداً ويودعونها اللفظ البليغ الموجز . ولم يكن الايجاز من دأبهم كما كان من دأب شعراء العربية وأدبائها فى أحسن آثارها وأزهر عصورها ، فالأديب الانجليزى إذا أخذ فى الكتابة أرسل لخياله العنان ، وأبرز فكرته الواحدة فى شتى الصور متسلسلة مستتبعة غيرها من الأفكار ، أما الأديب العربى فيؤثر الايجاز البليغ ويودع المعنى الواسع الشامل البيت الموجز أو العبارة المحكمة ويتجه إلى غيره ، وهذا الايجاز المشهود فى جيد الشعر الجاهلى راجع بلاشك إلى أمية العرب وحاجتهم إلى الاستغناء بالقول الجامع ، والاجتزاء بالحكمة الشاملة ، وقد تووورثت هذه الخلة من خلال الأدب الجاهلى فيما تلا ذلك من عصور الأدب العربى كما تووورث غيرها من خلال .

ومما حبب العرب فى جاهليتهم فى الحكمة أخذهم بحياة الحل والترحال ، واشتغالهم أبدا بالقتال وإدراك الثارات : فتلك حياة شديدة كانت تتطلب كثيراً من العمل وقليلا من الكلام المفيد مع قلته . وكان الانتفاع بالتجارب من أكبر أسباب النجاح فيها ، والاشتهار بالحكمة والدراية من صفات الشيوخ والرؤساء ؛ ومنهم كان كثير من فحول الشعر ورجال البيان ومصاقع الخطباء كالأفوه الأودى وأكثم بن صيفى وقس بن ساعدة الأيادى . ومن ثم أثر عن الجاهليين مالا يعد من روائع الحكم نظما ونثراً . ومن أمثلتها خطبة قس بن ساعدة وحكم زهير بن أبى سلمى فى معلقته . وقد أعجب المتأخرون من الشعراء والأدباء بهاتيك الحكم أيما إعجاب ، وشمروا عن ساعد الجد للاتيان بامثالها ، وعدوها محك قدرة الشاعر وبرهان الشاعرية الصادقة ، وكاد يلهيهم الاشتداد فى طلبها عن ابتكار شىء جديد فى الشعر

وكان العرب فى الجاهلية لا يعدون الشاعر فحلا حتى ينطق بالحكمة ، فما لم يأت بشىء منها فهو بعد غر لم ينضجه تنور التجارب ولم تتكشف له حقائق الحياة ؛ وظل الأعشى فيما قبل مزوياً عن مرتبة الفحول ، رغم ضربه بسهم فى مجالات المدح والهجاء والاعتذار ووصف الخمر ، حتى قال فى مدحه سلامة ذو فائش : « والشىء حيثما جعلا » ، فرفعته هذه الجملة الموجزة إلى مصاف النابغة وامرىء القيس. وتروى حكايات كهذه عن شعراء الاسلام : فقد قيل إن جريرا سمع دالية عمر بن أبى ربيعة التى يقول منها : « إنما العاجز من لا يستبد » ، فقال : « ما زال هذا الفتى يهذى ، حتى قال الشعر » ، فهو لم يحفل بكل ما قاله الفتى فى التشبيب ، حتى ضرب على وتر الحكمة فاستثار إعجابه .

وأدب الجاهلية وصدر الاسلام حافل بتلك الحكم البليغة المشتملة على تجارب قائليها من سادة القبائل وأشرافها ، الجامعة لنظراتهم فى الحياة وخطتهم وسننهم فيها ، وتمدحهم بما رسموه لأنفسهم من مناهج وما أخذوها به من فضائل ، وهذا الباب من أكرم أبواب الادب العربى وأدعاها إلى الاعجاب ، ومن أجله كان العرب فى تلك العهود يغالون بالشعر وينشئون أبناءهم على مدارسته ، وكانوا يسمون هذا الباب من الشعر بالادب ، لأن حفظ آثاره والتمثل بها يؤدبان النفس ويهذبان الخلق ، وذاك هو الاسم الذى أطلقه أبو تمام فى حماسته على ذلك الضرب من القول الشامل للحكمة والتمدح بالفضيلة . وقد اتسع معنى هذا اللفظ فبعد أن كان اسم جزء صار اسم كل وأطلق على الشعر جميعه والنثر معاً . وليس شك فى أن هذا التطور الطبيعى البسيط هو منشأ كلمة أدب اللغة ، وإن يكن بعض المستشرقين قد تحذلق وزعم أنها مقلوبة عن كلمة دأب ، فذلك من قبيل النظريات المحضة التى لا تبلغ مبلغ اليقين أبداً ؛ وليست إلا من قبيل التظرف العلمى والتظاهر بالتعمق فى البحث ، وإن لم يجد ذلك العلم فتيلا ، ولم يدرك يوما منزلة الاقناع .

كانت الحكمة من أظهر أبواب الأدب فى الجاهلية وصدر الاسلام ، وكان من أقطابها فى الجاهلية من ذكر ، وفى الاسلام الامام على والأحنف بن قيس وكثير من الصحابة ، وبظهور الاسلام ثم توطد الدولة زاد العرب كلفاً بالحكمة وزاد الداعى اليها أهمية ، فقد جاء القرآن الكريم والحديث حافلين بروائع الحكم وجوامع الكلم ، التى أربت على الغاية من البلاغة والسمو ، وحثا على طلب الحكمة التى هى ضالة المؤمن ، وقد ظل الكتاب والحديث دائما نموذج الأدباء ومستقاهم ؛ فلما فرضت الملكية المطلقة سلطتها كاملة ، وأخرست الأفواه وأسكتت النقد ، عادلة حينا وجائرة أحيانا ، وجد الناس فى الحكمة الشاملة المعممة سلوة للنفوس المقهورة ، وعزاء عن المآرب المحظورة ، وتنفيسا عن المطامع المستورة ، واتقاء لشبهات السلطان ، فأجريت الأمثال والمواعظ على ألسنة السلف الصالح ، وملوك الأمم الغابرة وحكمائها وفلاسفتها ، ووضعت على أفواه الحيوان والارواح ، وأرسلت شعرا ونثرا ، وترجمت عن اللغات ، وكان من ذلك مترجمات ابن المقفع .

وكانت الصبغة الدينية التى لازمت توطد الدولة الاسلامية وتطور المجتمع الاسلامى ، داعيا آخر إلى انتشار الحكمة فى الادب ، وفى الحكمة كتب ونظم كثير من رجال الدين ، ومن آثار الحكمة التى مبعثها الشعور الدينى اشعار أبى العتاهية وابن عبد القدوس والامام الشافعى ، ومما زاد هذه النزعة الدينية احتدادا ، وهذه الحكم الدينية ذيوعا ، ما كان يجاورها من مظاهر الترف المغرق وآثار اللذات والمفاسد ، فكانت تلك رد فعل لهذه ، وكان من الشعراء المغرقين فى المجون والتبذل كأبى نواس وبشار ، من تعاودهم رجعات من التبصر فى الحياة وغرورها ، حين تسئمهم اللذات ويرهقهم بشمها وخمارها ، فيرسلون فى أشعارهم من الحكم ما قد ينسب إلى أزهد الزهاد وأحكم الحكماء.

وبدخول الأدب العربى طوره الفنى طلب الشعراء البراعة والتفنن بصوغ الحكم وضرب الأمثال محاكاة للأقدمين وتوليدا من معانيهم ، وكانوا يشفعون الحكمة الانسانية أحيانا بمصداقها من عالم الطبيعة والحيوان والجماد ، فاذا أرسل أبو تمام حكمة فى ظهور فضل المحسود على يد الحاسد ضرب لذلك مثلا اشتعال النار فيما جاورت وإعلانها بذلك طيب عرف العود ، ويقول فى موضع آخر منتزعا مصداق كلامه من ظواهر الطبيعة :

وإذا رأيت من الهلال نموه   أيقنت أن سيكون بدرا كاملا

ويقول غيره :

يعيش المرء ما استحيا بخير   ويبقى العود ما بقى اللحاء

واشتغل المسلمون بدراسة الفلسفة اليونانية دون الأدب اليونانى ، فتأثر أدباؤهم بتلك الدراسة ، وازداد ولعهم بالحكمة ، واتخذت حكمتهم صبغة فلسفية أقرب إلى القضايا المنطقية وأشبه بالاستقراء العلمى ، وذلك واضح فى أشعار المتنبى والمعرى اللذين انحرفا بذلك بعض الانحراف عن الأسلوب العربى الأصيل ، الذى يمتاز بالبلاغة والوضوح والاطلاق ، وبلغ من تأثر شعر الحكمة فى العربية بروح الفلسفة اليونانية ، أن أبا على الحاتمى وضع رسالة يرد فيها أكثر حكم المتنبى إلى كلام أرسطو . وفى شعر المتنبى بلغت الحكمة العربية أوج رقيها ، أو بالأحرى بلغ الشعر العربى ذروة عظمته ، وبلغ من احتفاء الشعراء بتضمين الحكمة أشعارهم أن قيل فى الموازنة بين أبى تمام والمتنبى والبحترى إن الأولين حكيمان ، والشاعر البحترى ، لكثرة ما فى شعرهما من الحكم ، وأبو تمام هو القائل فى ذلك الضرب من الشعر :

يرى حكمة ما فيه وهو فكاهة   ويقضى بما يقضى به وهو ظالم
ولولا خلال سنها الشعر مادرى   بغاة العلا من أين تؤتى المكارم

فالولع بالحكمة ظاهر فى الأدب العربى : فاقتباس المأثور من كلام المتقدمين أكثر ذيوعا فى العربية منه فى الانجليزية ، والحكمة مادة جانب عظيم من كتب الأدب التى تحفل بما أثر عن الحكماء والخلفاء والفقهاء من جوامع الكلم ، وهى موضوع مطولات كثيرة كمقصورة ابن دريد ولامية ابن الوردى وأرجوزة صاحب كتاب الصادح والباغم ، وبها تمتلىء الخطب المنسوبة إلى وفود العرب إلى كسرى وإلى أهل بيت المهدى عند مشاورته لهم فى حرب خراسان . وقد أولع الكتاب بنثر حكم الشعراء فى رسائلهم مسجوعة منمقة ، كما أولع الشعراء بنظم الحكم السائرة وأمثال العامة ، وكان الشعراء أكثر لجوءا إلى نظم الحكم وسرد العبر والاستشهاد بعظات التاريخ خاصة فى قصائد الرثاء ورسائل التعزية وأشعار الشكوى والوجدانيات ؛ وكثيرا ما كانت تساق الحكم فى هيئة نصائح . ويقول ابن عبد القدوس « والنصح أغلى ما يباع ويوهب » ، ومن شعر النصيحة جيمية محمد ابن بشير التى يقول منها :

قدم لرجلك قبل الخطو موضعها   فمن علا زلقا عن غرة زلجا

أما الموضوعات التى طرقتها الحكمة فى الأدب العربى فلا تحصر ، فقد جالت فى شتى نواحى الحياة : من غرور الدنيا وتقلبها ووجوب الحذر منها وتوقع زوالها ، إلى مزايا الشدائد وامتحانها للرجال ، إلى ندرة الصديق الصدوق ، ومن شؤون الحياة اليومية إلى سياسة الدول وحكم الشعوب ، ومن آداب الحوار إلى آداب مصاحبة السلطان ؛ وكان بعض الشعراء يتوفرون على ضروب دون غيرها من الحكمة ، حسب ماتوجههم اليه بيئاتهم ونفسياتهم ؛ فأبو العتاهية كان دائم الذكر للموت ، والمتنبى كان يشتق حكمه من حياة التناحر والمطامع والمعارك الأدبية والسياسية التى كان يحياها ، والمعرى كان يستق حكمته ويستخرج عبره من ظواهر الكون التى كان دائم الاشتغال بها ، فهذان البيتان من نظمه يحملان طابع تفكيره ولا يمكن أن ينسبا إلى سواه :

يغادر غابة الضرغام كما   ينازع ظبى رمل فى كناس
سجايا كلها غدر ولؤم   توارثها أناس عن أناس

فكثير من الظروف التى أحاطت بالأدب العربى فى الجاهلية والاسلام كانت تدعو إلى انتشار آثار الحكمة فيه ، فجاء حافلا بها منثوره ومنظومه على متعدد الصور ومختلف الأوضاع ، ومثل هاتيك الظروف لم تصاحب الأدب الانجليزى ، ومن ثم كانت الحكمة فيه أندر كثيرا ، فلا البداوة ولا الملكية المطلقة ولا رد الفعل المنعكس من الترف المفرط ، ولا الروح الدينى المتغلغل فى المجتمع ، لم يؤثر شىء من ذلك فى الانجليزية تأثيره فى العربية ولم يقتصر الانجليز على دراسة الفلسفة الاغريقية بل درسوا معها

الأدب الاغريقى ، وعنه تلقوا رسالته وهى الجمال ، فصارت هذه رسالة الأدب الانجليزى أيضاً ، فكان الأديب الانجليزى يتوخى الجمال فيما يشاهد ويحس ويكتب ، فى حين كانت الحكمة والعبرة والموعظة قبلة الأديب العربى فى كل ذلك ، ومن الأدب الاغريقى تعلم الأديب الانجليزى أيضا أن يطلق لفكره العنان ويفسح لبيانه المجال ، على حين ظل رائد الأديب العربى بلاغة الايجاز ، وكبح جمحات الخيال .

ومن ثم تمثل خير ما فى الأدب العربى فى حكم الشعراء والخطباء والكتاب ، وجوامع كلمهم ، وموجز بيانهم ، وتمثل خير ما فى الأدب الانجليزى فى سبحات الخيال المطلق المطنب ، من درامات وملاحم وقصص ، فالعيب الاجتماعى أو النقص السياسى الذى كان يراه الأديب العربى ، فتحمله الظروف سالفة الذكر على أن يصوغه حكمة موجزة عامة لا تثير ريبة السلطان ، كان يحوك حوله الأديب الانجليزى فى قصة اجتماعية رحيبة الجوانب تشخص موضع الداء تشخيصا ؛ وتعين الدواء ، ويتجلى الفرق بين الاديبن فى هذا الصدد فى نوع عبقرية شاعريهما الفذين : فقد بلغت العبقرية الشعرية الانجليزية ذروتها فى آثار شكسبير صاحب الدرامات العجاجة بالخيال المطلق ، وبلغت العبقرية الشعرية العربية أوجها فى قصيد المتنبى الحافل بالحكمة البليغة

فخرى أبو السعود

البطولة وهل ندرت ؟

للأستاذ فتحى رضوان

يحلو لى أن أدخل فى المناقشة التى أدارها الكاتبان النابغان ، عباس العقاد وأحمد أمين حول النبوغ والبطولة ... يحلو لى أن أدخل فى هذه المناقشة خصما ثالثاً ، وإن كنت أكره لفظة « خصم » ، ولكن ماحيلتى وقد علمنيها القانون ... !

لقد طالعت مقال الكاتب « النابغ » أحمد أمين ، وأدركت نظريته التى بناها على أن النبوغ هو سبق النابغ لمعاصريه ، حتى ليعجزوا عن اللحاق به ، إلا بعد زمن قد يطول ، وذلك حين يكون النبوغ عالياً ورفيعا ، وقد يقصر ، وذلك حين لا يكون النابغ ممتازاً إلا بقدر ...

ولقد ساقته هذه النظرية إلى نتيجة آمن بها ، ودافع عنها ، وضرب الأمثلة العديدة على صحتها وسلامتها . والنتيجة هى التى استوقفتنى ، فدفعتنى إلى التأمل فيما جاء بهذا المقال ، ثم هى التى حفزتنى على كتابة هذا الرد . فالأستاذ أحمد أمين يرى أن نوابغ هذا العصر قلة ، لأن أساليب التربية الحديثة ، ونظام المجتمع الذى نعيش فى ظله أشاع العلم ، وأضعف الفوارق بين الخاصة والعامة ، وأتاح فرصة التحصيل والتفوق للفقراء وذوى الثراء . وقد بلغ اقتناع الأستاذ أحمد أمين بهذه النظرية وبنتيجتها مبلغاً حمله على أن يضرب لنا الأمثال بالتلميذ فى المدارس الثانوية ، فهو ينظر اليه ، كل يوم ، فيراه يطالع كتب الطبيعة التى تشرح قواعد الضوء والصوت ، والحرارة والكهرباء ، فيقول : « إنه يعرف ما يعرفه نيوتن ، وأكثر مما يعرفه » ، ثم يراه يقرأ كتب النحو والصرف ، والبلاغة فيقوى يقينه بأن ما وصل اليه من نتيجة صحيح جداً فيقول : « إنه يدرى من النحو ، ما لا يدريه سيبويه »

ثم يطمئن إلى هذا الاستقراء فيقول لنا إذا كان محصول علمه يفوق علم جهابذة العلوم والآداب ، وهو بعد تلميذ فى المدارس ، يخطىء ويصيب ، وينجح ويتعرض للسقوط ، ويذاكر ويشكو قسوة الامتحان ، فكيف تظنون أن عهد النبوغ لم ينصرم بعد ؟ . وأين مجال التفوق أمام الموهوبين وذوى الجد ما دامت المدارس قد ذللت المعرفة وفتحت أبوابها على المصاريع ؟

قد كان التفوق والنبوغ بالأمس ممكناً ، لأن النابغة كان مبصراً وسط عمى ، وصاحياً وسط مغفلين ومدركا بين جهال . أما اليوم فأصغر علماء الطبيعة كأكبرهم ، يعرفان من أمر هذا العلم وقواعده قدراً يكاد يكون متساوياً ، فاذا وجد الفارق بين العالم الصغير والعالم الكبير فليس هو بالفارق الذى يضفى على الكبير منهما صفة النبوغ والتفوق ...

وقد سألنا الأستاذ أحمد أمين أن ندله على السياسى الذى يفوق أقرانه ويبذهم ، وقد نبهنا إلى استنارة الشعوب وبصرها الآن بأساليب الحكم وفقهها لطرائق الادارة ؛ ثم سألنا أن ندله على العالم الذى يسبق جيله أو معاصريه ، ونبهنا إلى أن العلوم اليوم والفنون كذلك قائمة على سنة التخصص .

وأفهمنا أنه لا يوجد طبيب ، وإنما يوجد اخصائيون في كل فرع من فروع الطب ، ولا يوجد قانونيون ، بل مطبقون لناحية واحدة من نواحي القانون ...

والحق أننا نشكر للأستاذ هذا التنبيه ، لأننا نستطيع بعده أن ندله على النابغين المتفوقين الذين يسبقون معاصريهم بالسنين ويفوتونهم بالمراحل . فالتاريخ لم يعرف حاكما كموسوليني ينبعث من خنادق الحرب ، ثم يشتغل سنين معدودة في الصحافة ، ثم تدين له الدولة والأمة بالطاعة والانصياع ، ويصبح البون بينه وبين أكبر رجال أمته شاسعاً ، حتى لا يكاد يوجد في إيطاليا إلا موسوليني ، الكلمة كلمته ، وكلمته قانون ، وقانونه مقدس أسمى من أن يشوبه خطأ ، ثم تتحالف عليه الدول وتطوق بلاده بحصار لا يرحم ، فيجرح شجاعته ، ويواجه العاصفة بسيل من الخطب ودنيا من التدابير ... فالتخصص ومجانية المدارس وتذليل أساليب التحصيل ، كلها لم تحل دون بروز شخصية سياسية طاغية في إيطاليا . وهذا البروز ، هو النبوغ على الأقل كما وضح لنا الأستاذ أحمد أمين مقياسه - ولكن الأستاذ يريد أن ندله على نوابغ كثيرين وإلا كان محقاً فيما ذهب اليه من أن العصر الحديث لا يعتبر عصر النوابغ ، بل عصر ارتقاء الجماعة الانسانية ارتقاء لا يسمح بايجاد الفوارق الواسعة بين العامة والخاصة ، وبين الكبار والصغار . ولكن حسب الأستاذ الكبير أن يدير بصره في العالم بأسره ليعلم أننا نعيش في عصر النابغين فألمانيا يحكمها رجل واحد يتصرف في أمورها كما يحلو له . أو على الأقل كما يحلو له ومستشاروه الذين من حوله .

وروسيا ، على رأسها رجل يضع دستورها ، وينفذ قانونها ويشرف على جيشها ، والذين من حوله أقزام ينظرون اليه ولا يقوون على مقاومة إرادته ... وعلى الأستاذ الكبير أن يسأل من اليوم صاحب النفوذ الذي لا يحد في تركيا ، وفي بولندا - قبل وفات سلسودسكي - وفي النمسا وفي تشكوسلوفاكيا في عهد مازاريك ليعرف أننا محكومون بالنابغين والمتفوقين في عالم السياسة وليدرك أن بصر الشعوب بأساليب الحكم ، وفطنتها الدستورية ، لم تحل دون ظهور هذه الكثرة من ذوي السلطان المطلق ..

فاذا رجعنا إلى التاريخ القديم ، وجدنا أن روما التي احتملت موسوليني أربع عشرة سنة متوالية ، لم تستطع أن تحمل يوليوس قيصر مثل هذه المدة .

قد يعترض الأستاذ فيقول : ولكن من قال عن هؤلاء الحكام نابغون ؟ وهو لا يحرجني بهذا السؤال ، لأنه هو الذي ضرب لنا المثل « بنابليون » ولا أحسب أن نابليون من حيث معدن العظمة يبذ واحداً من هؤلاء الذين ذكرت أسماءهم

فاذا أدرنا وجهنا إلى ميدان العلوم والفنون الفيناء ميدان العمالقة والأقزام ، ميدان الذين تلامس هاماتهم السماء والذين تلاصق أسماؤهم التراب . على الرغم من أن هؤلاء وأولئك ، حصلوا على نصيب واحد من العلم المدرسي . فالأستاذ أحمد أمين يصيب كثيراً من العناء إذا هو أراد أن يجد قريناً لرجل ككارل ماركس ألف كتاباً فثل هذا الكتاب عروشاً ، وأزال دولا ، وقلب وجه التاريخ ، ورجل كداروين لا يشابهه في ميدان الطبيعة أكثر الذين حوله ، ولا نستطيع أن نقول إن كارل ماركس هو وحده النابغة في ميدان الاقتصاد . ولا أن داروين هو وحده المتفوق في ميدان الطبيعة ، فالي جانب ماركس برودون وبلاخانوف ويوخارين وغيرهم وغيرهم ممن كانوا إلى جانب طلاب الاقتصاد وأساتذته وكتابه والمشتغلين به نوابغ بل عباقرة . وفي الأدب يكتب الآن الكثيرون ، والمطابع لا تنفك تخرج المؤلفات والمصنفات ، ولكن ألا يوجد الكاتب الذي تساوي كلمته في حساب المادة عشرات الجنيهات ، والكاتب الذي لا تساوي كتبه شروى نقير ... ثم ألا يوجد الكاتب الذي تفعل بدائعه في النفوس وفي الشعوب فعلا تارة يدفع بها الى العنف ، وأخرى يميل بها إلى الرضا ... فكثرة الكتاب في أوربا وفي العالم ، وكثرة الموسيقيين وكثرة الاقتصاديين لم تحل دون النابغين ، ولكن الأستاذ احمد أمين يريد أن يرى هؤلاء النوابغ ، ويريد أن يسألنا عن الفرق الكبير بين كاتب انجليزي وكاتب انجليزي آخر ... والحق أننا لا نتعب كثيراً في أن ندله عليهم ، لا بذكر الأسماء بل بوضع قاعدة تغير الموقف .

فالاستاذ لا يرى موسيقياً كالموصلى ولا كبتهوفن . ولا شاعراً كشكسبير ، ولا كالمتنبي . ولا كاتباً كعبد الحميد ولا كابن المقفع ولا كاكولى . فيقول : لانبوغ فى هذه الأيام وينسى أن الذين يتحدث عنهم جميعاً طواهم الموت وأحاطهم القدم بجلاله ، ومحا أسماء منافسيهم الذين كانوا يعيشون معهم وبقيت أسماؤهم وحدهم ، وأن المعاصرين يعيشون معنا ، ونحن نقرأ أسماء النوابغ وأسماء العامة ، أقصد العاديين من الكتاب والفنانين ، ولكن غدا سيموت الجميع ، والأجيال القادمةهى وحدها التى ستدون أسماء المتفوقين الذين عاشت بدائعهم ، وخلدت مؤلفاتهم . وظهرت آثارهم ، عظيمةومؤثرةوجليلة وستقول هذه الأجيال كما يقول اليوم الاستاذ احمد أمين إن جيلها يخلومن النوابغ وإن الأجيال السابقة هى عهد المتفوقين والمبرزين .

فمثلنا مثل الذى يقف الى جانب الجبل ، لا يرى قممه ، ولا سوافله ، إنما يرى جسما مسطحاً لا تضاريس فيه . فاذا بعد عنه ظهرت معالمه وبانت خطوطه واتضح له أنه عال فى ناحية ومنخفض فى ثانية ، أو قل إن مثلنا مثل الوالد يعيش مع بنيه فلا يدرى أنهم يزدادون طولا مع مرور الزمن ، فاذا غاب عنهم شهراً وعاد أدرك أن هذا أطول من ذاك ، وأن أكبرهم أشد سمرة من أصغرهم ، لأن طول النظر إلى الصورة لا يبرز معالمها .

المدارس انتشرت ، والمعارف رخصت ، ولكن النفس البشرية هى هى باستعدادها ، سيبقى النبوغ فيها استعدادا لا يضعفه نظام ، ولا يقويه نظام ، إنما يغير فيه قليلا .

لقد طرنا فى السماء ، وغصنا فى الماء ، ولكن لايزال الواحد منا اذا ما خلا إلى نفسه فى القمر ، ثارت شجونه ، وتحركت فى عيونه شؤونه ، تماما كما يفعل ابن الصحراء وراكب الجمل .

وأحفادنا سيقولون — حينما يقرأون مقالنا — إننا تعجلنا الزمن . فقلنا عن عهدنا إنه عهد لا نبوغ فيه ، وإنهم سيرونه عهدا ككل العهود ، فيه النوابغ وفيه العاديون ، فيه العمالقة وفيه الأقزام .

فتحى رضوان

على هامش رحلتى الى الحجاز

ليـــلة فى مكة

بقلم الدكتور عبد الكريم جرمانوس

أستاذ التاريخ الشرقى بجامعة بودابست

أخذ الغسق يهبط بسرعة فى وادى مكة الضيق ، المشبع بهواء الصحراء الجاف ؛ وهنا بدأت خيوط الأصيل الذهبية تتلاشى ثم تختفى دفعة واحدة كأن ستاراً أسدل عليها بغتة ؛ وبعد فترة وجيزة أخذ الليل ينشر خيمته السوداء فنسينا حينذاك ذكريات الغروب الجميلة وأصبحت لدينا كحلم سافر بعيد ، ثم خيم السكون وشمل المدينة كلها .

وكنت أشاهد منظر غروب الشمس من إحدى نوافذ بيتى الصغير فى مكة . ولم ير الديك الذى كان يصيح طيلة النهار داعياً لإيقاف صياحه ، كأن عظمة هذا الغروب لم تؤثر فى نفسه ، ولكن الدجاج لاذت بالصمت وراحت تتسلق أقفاصها استعداداً للنوم .

وكان يقع فى طرف فناء البيت الصغير الذى أعد لضيافتنا قسم خاص بالحريم تجلس فى إحدى غرفه سيدة وقور اسمها سنية ، تقرأ القرآن على ضوء مصباح خافت اللون ، على حين كانت ابنتها فاطمة النحيلة الخصر منصرفة إلى اعداد طعام العشاء لارساله إلينا مع إحدى العجائز . وحتى هذه العجوز الشمطاء كانت تتخذ كل الحيطة عند احضارها الطعام بحيث لا يظهر وجهها ، وكانت تحمل الصينية على يديها ثم تدفعها بحذر على عتبة الغرفة وتنسل راجعة ، فأقوم بدورى لآخذ الصينية بمجرد وضعها على العتبة . أما الطعام فهو لا يخلو عادة من الأصناف العربية المشبعة بالتوابل

كانت هذه العجوز تحاول كما قلت أن تمنعنى من رؤية وجهها ، ولقد أفلحت فى ذلك إلى حد كبير ، فلم أر منها إلا ذلك الهيكل العظمى ، ولم أسمع من حركتها إلا صوت ذلك القبقاب الخشبى الذى كنت أسمع طقطقته على الدرج

حين صعودها وحين أوبتها إلى الحريم . فالمرأة فى كل زمان ومكان ، هي المرأة ، أو ذلك اللغز الغامض ، فى الغرب وفى الشرق على السواء ، فاذا ما دفعنى حب الاستطلاع لرؤية فاطمة الجميلة ، وليس هذا بمستغرب من رجل مثلى ، أخذت أنظر اليها خلسة من احدى الثغرات ، ويلوح لى أن الفتاة الصغيرة كانت تشعر أيضاً بأن العيون موجهة اليها من خصاص الشباك فكانت تتخذ كل حيطة وحذر فتقفل نوافذها وترخى السدول عليها حتى تمنع عنها تلك النظرات التى تخافها وتخشاها ، ولكن فاتها أن فى الفضاء تياراً خفياً ينشر جاذبية العواطف ، وينبعث من شعاعه شرارة سرعان ما تكون سبباً فى تأجج تلك النيران التى تضىء الحياة بلهيبها . هذه التيارات مخيفة فى الواقع لأنه حين اشتعالها تزيد أوار الحب فى القلوب البشرية ، فتوقظ فيها وسائل الحياة ووسائل الموت دون تفرقة بينهما . أما أنا فلا أخفى عنك اننى ارتعدت من هول ذلك التيار ، فرميت رأسى إلى الوراء حياء مخافة أن يقع نظر الفتاة على وأنا أتجسس عليها عن كثب ، ومخافة العار والفضيحة ولا سيما وأنا غريب عن البلاد

ففى أرض الحجاز ، تلك البلاد التى لا يوجد فيها من الجنس الأوربى غير شخصى الضعيف ، مرتدياً تلك الملابس الأفرنجية ، والذى تخرج من فمه رطانة لا يفهمها غيره ، كنت مضطراً بحكم البيئة التى تربيت فيها أن أبحث وأدقق فى كل ما يقع نظرى عليه ، ولكن بروح أجنبية . فكان شأنى شأن اللص الذى يتسلل إلى بيت تحت جنح الظلام ، فى وقت هجوع سكانه ، ثم يخشى أن يقوده سوء الطالع فتصدم رجله قطعة من الأثاث ، أو يفتح باباً خلسة ، بيد مرتجفة ، بل قد تراه يتلفت ذات اليمين وذات اليسار خائفاً وجلا ، فاذا صادف أن شعوره الاجرامى لم ينبض فى صدره ، فحينذاك يكاد يطير فرحاً لاقتناصه فريسته ، وإذا لم يجد وازعا من ضميره فانه يفخر بانتصاره على ضحيته . ومن الأسف أن هذا الشعور الاجرامى يلازمنا من المهد إلى اللحد ، فأمامنا الرجل العادى الذى يهرع إلى فراشه ليلا على حين نقضيه نحن فى مسامرة النجوم ، وفى الوقت الذى يعود هو فيه إلى بيته بعد أن يكون قد اكتسب قوته بعرق جبينه فما علينا إلا أن نوجه أنظارنا إلى ألوان الشمس العظيمة ساعة غروبها ، ونتعلم منها عن كثب طرق التحول ونعد قبلاتها الحلوة التى تطبعها على سطح الأرض من نعم الطبيعة . أجل يتحتم علينا أن نبحث بدقة وحذر خشية أن نتخبط فى ديجور الظلام كما يتخبط اللص فى الخفاء

انه لأحساس نبيل لو أتيح للانسان أن يكون كشجرة الأرز الباسقة ، تلك الشجرة المغروسة على أعالى القمم ، تنقل عينها من حين إلى آخر على المروج الخضراء والكروم الزمردية ، ولكن هذه الشجرة ـ وهى سيدة الأشجار ـ ستبقى على الدوام مهددة بميلها للسقوط فى وسط الأدغال ، حيث الحركة والحياة بين الحشرات والأزهار وبين القطعان فى مراعيها ، وحيث الأطفال يضحكون وحيث تستغرق السعادة فى سباتها العميق

هذه الأفكار مرت سراعاً بمخيلتى ، عند ما كنت أنظر صفوف نوافذ منازل مكة التى تطل على هذا الوادى الضيق ، ثم وقع نظرى على المآذن الشامخة وقد فارقتها أشعة الشمس الذهبية ، كأنها تنادينى أن أقترب منها . وهذه الشمس التى غربت هى بغير نزاع ذلك الصاحب الأمين للأجنبى ، فشمس الصباح وشمس الظهيرة بهما قوة واقتدار مثل قوة الشاب العاشق ، ولكنها على الدوام واحدة لا تتغير ، أى انها لا لون لها ، وتكاد تكون فى الغالب وحشية شاحبة ومزعجة . انها لا شىء سوى القوة الغشوم ، فهى كالآلة ، بيد أنه ينقصها الاحساس ، والصوت ، والضمير ، والشوق . فهذه الشمس التى تغرب ، ليست سوى حب الرجل البالغ ، فالضمير ، والمعرفة ، والفرح ، والأحزان قد تغلبت عليها مئات المرات ، وأخضعتها لسلطانها ، وظلت الآن فى كفاحها تغالبها ، وستظل فى هذا الكفاح الدائم راضية بالحياة ، ممتزجة مع الموت

هنا سمعت المؤذن يدعو المؤمنين إلى الصلاة ، وهنا يجب علينا أن نولى وجوهنا شطر الكعبة المقدسة لنسجد للحى القيوم ، مالك الملك ، الذى خلقنا فسوانا ، وفى قدرته الحياة والموت ، صاحب الأمر الذى إذا أراد شيئاً فانما يقول

له كن فيكون . فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون ، إننا ندعوه ونبتهل إليه فى قعودنا وقيامنا ، إذ ليس أفضل من الابتهال إلى قدرته ، تلك القدرة الدائمة الأبدية ، فطوبى لمن يخشون ربهم . نعم طوبى لهم وحسن مآب

خيم الظلام المخيف على جميع أطراف مكة ، وفى هذه البقعة الصحراوية الجرداء نرى بيت الله ، ذلك البيت العتيق قبلة الشعوب الاسلامية ، الذين ينسون حطام الدنيا ومتاعبها ويطأون المادة بأقدامهم ويستعيضون عنها بالايمان المطلق ، وهو لعمرى أثمن من كل شىء فى الوجود ، فيتخلصون من شرور الجسد ويصعدون بأرواحهم إلى أعلى عليين . وما أحلى وأطيب سماعك آذان المغرب فى بلاد العرب ، أو على الأقل ما وجدت شيئاً أروع منه ، خصوصا وقد قدمت الى هذه الأرض المقدسة لأتطهر من أدرانى وأبغى الثواب والمغفرة ، وسيعلم الانسان عند ما تصعد الروح إلى بارئها ، وعند ما تنهار أعمال الرجال ، فاننا بفطرتنا نلجأ إلى حماية الرب العظيم ، حيث الماء والهواء يحركان الصخور ؛ ولكن على الرغم من ذلك نحاول أن ننشل أنفسنا من وهدة القنوط بقوة الايمان ، تلك القوة التى تخفف عنا عذاب الضمير وتهدئ من ثورة عواطفنا الجامحة ، فتطمئن قلوبنا بذكر الله وتجرى على شفاهنا آيات الكتاب الكريم

أليست كلمات الله العذبة الفصيحة قادرة على أن ترشد الانسان مهما كان زائغ العقيدة إلى الصراط المستقيم ؟

ذلك الصراط الذى وعد الله به عباده المتقين فيرون ضوء الشمس الساطعة فى كل جزء من أجزاء الحياة ، وعند ما تشعر النفس بالكآبة فلاعزاء لها إلا أن تيمم نحو الخالق العظيم لأن الله سبحانه وتعالى يحب من عباده التوسل والضراعة إليه ، والكل يغترفون من فيض نعمائه لأنه رحيم رؤوف بعباده . على ضوء هذه العقيدة اضطجعت فى غرفتى وأغمضت عينى فشعرت بازدياد ضربات قلبى ثم ألفيت نفسى أتلو آية الكرسى ، وهناك شعرت بدمعتين حارتين تنحدران على خدى . ثم اسدل الليل ستاره وخيم السكون على أنحاء المدينة

وبدأ القوم يوقدون مصابيحهم الزيتية ، وحضرت الخادم تحمل طعام العشاء فسرعان ما شعرت بأنى أهبط من طبقات السمو والتفكير فى صفات الخالق إلى حضيض الأرض ، وبعد أن تناولت عشائى نهضت فارتديت سروالى وعصبت رأسى بعصبة أحكمت فوقها عقالا ، ثم يممت شطر جبل أبى قبيس لزيارة صديقى الأستاذ عبد الله رافع الذى دعانى مع آخرين لقضاء ليلة ساهرة فى بيته ، فاخترقت فى طريق سوق المدينة ورأيت الشوارع لا تزال مكتظة بالزوار وحجاج البيت الحرام . وكانت دار صديقى حافلة بالضيوف فما كدت أغشى الصالة الكبرى حتى أحسست أنى فى عزلة عن الضوضاء ، وشعرت بالهدوء الشامل والطمأنينة المريحة

وأستطيع أن أقول إن جماعة الوهابيين فى بلاد العرب يحرمون بتاتاً الاجتماع فى الولائم وغيرها ، وحجتهم فى ذلك أنها مخالفة لنصوص الشريعة والسنة ، ويقولون إن فى التقشف الغذاء النفسانى لكل طالب ، ويعززون رأيهم بأن الانسان ما خلق إلا للعبادة والتقوى ، وليس له أن يتوغل فى إعطاء النفس شهواتها لأن الحياة فى ذاتها كلها تعب وقصيرة ؛ وليس الغرض منها أن يتمتع الناس وينغمسون فى شهواتهم ، بيد أنى أرى أنهم يبالغون فى هذا التحريم لأن الله حين نظر إلى التراب الذى خلق منه آدم والذى تكون منه العالم ، سقطت من عينه دمعة ، وهذه الدمعة كانت تحمل شطراً من القلب ومن طبيعته أن يوجد فيه الحب والاحزان وغيرها من الصفات الكامنة الآن فى نفوسنا ،

(البقية فى العدد القادم)

أول مدرسة مصرية فرنسية *

للدكتور زكي مبارك

هذه أول مرة تلقى فيها كلمة اللغة العربية ، بجانب كلمة اللغة الفرنسية ، فى هذا المعهد ؛ وذلك حق كسبته اللغة العربية منذ عامين ، منذ إنشاء القسم المصرى الذى تسود فيه اللغة العربية سيادة أصيلة ، ويدرس فيه الأدب العربى دراسة مفصلة ، على نحو ما يدرس فى أرقى المدارس المصرية

والقسم المصرى لم ينشأ بهذا المعهد لمجرد المجاملة ، وإنما هى خطة تعليمية قضى بها المنطق السليم ، وتوجيه صالح وفق إليه المشرفون على سياسة التعليم فى هذا المعهد الذى يجمع بين القديم والحديث .

فأنا أيها السادة أتكلم باسم أساتذة اللغة العربية فى القسم المصرى كما تكلم زميلى المسيو بارال باسم أساتذة اللغة الفرنسية فى القسم الفرنسى ، وكذلك يأخذ الأدب العربى مكانه فى تقاليد الحفلات السنوية منذ اليوم ، ويصير من حظ هذا المنبر أن يطرب فى كل عام وهو يستمع لغة القرآن .

وإنشاء القسم المصرى فى معهد الليسيه هو الذى أوحى إلىّ موضوع هذه الخطبة ، وهو الكلام عن أول مدرسة مصرية فرنسية فى التاريخ الحديث .

والمدرسة التى أعنيها هى البعثة التى أرسلها محمد على الكبير إلى فرنسا فى سنة ١٨٢٦ وقد كانت مؤلفة من اثنين وأربعين طالبا منهم ثلاثة من طلبة الأزهر الشريف .

وما سميت تلك البعثة مدرسة من باب المجاز فقد كانت مدرسة بالفعل ، وكذلك سماها المسيو جومار فى التقرير الذى نشره فى الجورنال أزياتيك فى سنة ١٨٢٨ .

ومن طريف التشابه أن أذكر أن المدرسة المصرية الأولى كانت مؤلفة من اثنين وأربعين طالبا ثم زاد طلبتها بعد ذلك وأن القسم المصرى فى الليسيه كان طلبته فى الأسبوع الأول اثنين وأربعين طالبا ثم تكاثر العدد وازدحمت الفصول .

ولعل تشابه الحظوظ فى هذه البداية يبشر بتشابه الحظوظ فى التسامى والتفوق . والله بالتوفيق كفيل .

سافرت البعثة من مصر فى يناير فوصلت إلى باريس فى يوليو ، وإنما كان السفر طويلا لأن المواصلات لم تكن سهلت إلى الحد الذى تعرفونه فى هذه الأيام ، وقد كانت تلك الرحلة المطولة سبباً فى أن يتعرف الطلاب إلى الأقاليم الفرنسية ، ويدرسوا ما ائتلف وما اختلف من أخلاق الناس .

ولما استقر الطلبة فى باريس عاشوا تحت إشراف ثلاثة من الأساتذة المصريين ، وكان لأولئك الأساتذة الثلاثة واجبات دراسية ، ومن هذا ترون كيف كان المصريون يعرفون واجبهم فى ذلك الحين

كان الطلبة يقيمون أول الأمر مجتمعين فى بيت واحد يسمونه المركز ، ثم رؤى أن يتفرقوا فى المنازل الفرنسية ليتذوقوا الروح الفرنسى . فنظمت لهم لائحة مكونة من أربع عشرة مادة . وإليكم نصوص تلك المواد لتروا كيف كانت إدارة البعثة تفهم الواجبات التعليمية فى تلك العهود

المادة الأولى : (١) إن يوم الأحد المقرر لهم الخروج فيه يلزم أن يخرجوا من البنسيونات فى الساعة تسعة ويأتوا إلى البيت المركز من أول الأمر ويقدموا وقت الدخول ورقة معلمهم إلى الأفندى النوبتجى لأجل أن يعلم ساعة دخولهم فى البيت ، وبعد ذلك يذهبون إلى المواضع المعدة للفرجة بشرط أن يجتمع ثلاثة أو أربعة ، ثم يرجعون إلى البنسيونات فى أيام الصيف الساعة تسعة ، وفى أيام الشتاء الساعة ثمانية

المادة الثانية : إن من لم يمتثل لخصوص ما سبق يمنع الخروج من البنسيون بحسب الاقتضاء جمعة أو جمعتين

المادة الثالثة : إن كل من له شكاية من معلمه لا تسمع ولا تقبل حتى يكتبها فى ورقة . ولا تسمع إلا إذا كانت من جهة التعليم أو جهة أخرى يحصل له منها ضرر

(١) هذه اللائحة كتبت بقلم المغفور له الشيخ رفاعه بك الطهطاوى وقد احتفظنا بعباراته

* خطبة ألقيت فى حفلة توزيع الجوائز بمعهد الليسيه فرانسيه

المادة الرابعة : إن جميع الأفندية يمتحنون فى آخر كل شهر ليعرف ما حصلوه من العلوم فى هذا الشهر ويسألون عما يحتاجون إليه من الكتب والآلات ويكتب فى آخر كل شهر كسبهم وتحصيلهم وأفعالهم على الوجه الصحيح

المادة الخامسة : لو احتاجوا شيئاً من الكتب والآلات فى أثناء الشهر يطلبونه من معلمهم بورقة يكتبونها له ، ومعلمهم يخبر بذلك مسيو جومار ، فان رآه مناسباً يعطيهم ذلك بعد ما يخبر النوبتجى ، فان اشترى أحد شيئاً من غير إجازة يلزمه أن يدفع ثمنه من عنده

المادة السادسة : إنه بعد الامتحان بما ذكرنا فى المادة الرابعة إن استحق أحد من الأفندية الهدية (١) لنجابته تعطى له كتب وأدوات وسعة

المادة السابعة : فى محل التفرج أو الطريق لا ينبغى لأحد منهم أن يرتكب ما يخل بمروءته ، وهذا الأمر هو أهم الجميع وممنوع أشد المنع

المادة الثامنة : إن كل الأفندية الذين فى البنسيونات لا يدخلون البيت المركز إلا كل خمسة عشر يوماً مرة وهو يوم الأحد

المادة التاسعة : إن يوم الأحد الذى لا يأتون فيه إلى البيت يخرجون فيه مع أولاد الفرنساوية أو مع المعلمين إلى مواضع التفرج أو الرياضة أو ما ينبغى رؤيته ، وكذلك يوم الخميس أو يوم التعطيل (٢) ، إن لم يكن عليهم شغل فيذهبون مع من ذكر إلى المواضع المذكورة

المادة العاشرة : إذا خالف أحد هذا الترتيب يقابل بقدر مخالفته ، وإذا أظهر عدم الطاعة يحبس بالخشونة ، وإن كان يتشبث بأفعال غير لائقة وأطوار غير مرضية وجاءت تذكرة من معلمه تشهد عليه بقبح حاله وتبين عصيانه فمثل ما ذكر حضرة ولى النعم أفندينا فى القوانين التى أعطاها لنا نتشاور مع المحبين لحضرة أفندينا من أهالى هذه المدينة

(١) الهدية هي الجائزة في التعبير الحديث
(٢) يوم التعطيل هو الآن يوم العطلة

ونرسل فاعل القبح والعصيان بنفسه حالا إلى مصر من غير شك ولا شبهة .

المادة الثانية عشرة : إن جميع الأفندية يكونون فى البنسيونات فى هذا الترتيب على حد سواء ، وإن كان فى البنسيونات مائدتان احداهما للمعلمين والأخرى للتلاميذ فأفنديتنا يأكلون مع معلميهم .

المادة الثالثة عشرة : إن الأفندية المذكورين يلزمهم جميع ما ذكر من القوانين من غير امتياز ولسبب ذلك أعطينا كل واحد منهم صورة ذلك

المادة الرابعة عشرة : كل المواد السابقة هى خلاصة أفكارنا ونتيجة أذهاننا وأذهان الأعيان الذين وصاهم علينا حضرة أفندينا ، وبناء على ذلك كل أحد يلزمه أن يتبعها مع التنبيه لأجل تحصيل رضاء حضرة أفندينا ولى النعم . فمن لم يمتثل أو تعلل بشىء يجرى عليه ما هو مذكور فى قانون حضرة أفندينا ولى النعم حفظه الله

***

أيها السادة :

حدثتكم أن محمد على الكبير وكل رعاية تلك البعثة إلى المسيو جومار ، فاسمحوا لى أن أشير إلى بعض النواحى من أخلاق ذلكم المربى العظيم .

كان المسيو جومار يحرص أشد الحرص على تذكير الطلبة المصريين بانهم من شعب مجيد له فضل سابق على الانسانية فقد قال فى الخطبة التى ألقاها عليهم فى حفلة توزيع الجوائز فى اليوم الرابع من يوليه سنة ١٨٢٨ :

« أيها الشبان ، هذه أول مرة بعد وصولكم إلى فرنسا تعطى لكم أمام الجمهور المكافأة التى تستحقونها على عملكم الذى ثابرتم عليه ، وهذا اليوم يعد من أفضل أيام حياتكم ، والأكاليل التى ستتوج بها رءوسكم بعد هنيهة هى رمز فخر عظيم ، لأنكم أتيتم فى عاصمة العلوم والفنون ، وفى وسط مدينة تجمع بين جوانبها كل ما وجد من عناصر المدنية اليونانية وكل ما وجد من العناصر الفخمة فى طيبة ذات المائة باب .

أمامكم مناهل العلم فاغترفوا منها بكلتا يديكم ، وهذا هو

قبسه المضىء بأنواره أمام أعينكم . فاقتبسوا من فرنسا نور العقل الذى رفع أوربا على سائر أجزاء الدنيا ، وبذلك تردون إلى وطنكم منافع الشرائع والفنون التى ازدان بها عدة قرون فى الأزمان الماضية فمصر التى تنوبون عنها ستسترد بكم خواصها الأصلية ، وفرنسا التى تعلمكم وتهذبكم تفى ما عليها من الدين الذى للشرق على الغرب كله »

ولم يقف المسيو جومار عند هذا الحد من التذكير بمجد مصر ، بل تحدث إلى الجورنال أزياتيك عن البعثة المصرية فأشار إلى ما أنشأ محمد على الكبير من المدارس فى وادى النيل فقال إنها ستكون عاملا لرد النور إلى وطنه الأصلى ، ذلك النور الذى يجب على كل من يعنى بنشر العلوم والمعارف والمدنية أن يرده إلى مهده الأصيل

* * *

ولعلكم تسألون أيها السادة عن عناية محمد على الكبير بتلك البعثة ، وجواب ذلك عند الشيخ رفاعة الطهطاوى ، فقد حدثتنا مذكراته أن محمد على الكبير كان يبعث اليهم من وقت إلى آخر خطاباً يحضهم به على الجد والتحصيل ، وأثبت شاهداً لذلك نسوق منه طرفا للدلالة على مبلغ عناية ذلك الرجل العظيم بأولئك المبعوثين

قال طيب الله ثراه :

قدوة الأماثل الكرام الافندية المقيمين فى باريس لتحصيل العلوم والفنون . زيد قدرهم

قد وصلتنا أخباركم الشهرية ، والجداول المكتوب فيها مدة تحصيلكم ، وكانت الجداول المشتملة على شغلكم ثلاثة أشهر مبهمة لم يفهم منها ما حصلتموه فى هذه المدة . وما فهمنا منها شيئاً ، وأنتم فى مدينة مثل مدينة باريس التى هى منبع العلوم والفنون ، فقياسا على قلة شغلكم هذه المدة عرفنا عدم غيرتكم وتحصيلكم ، وهذا الأمر غمنا كثيراً ، فيا أفندية ما هو مأمولنا منكم ، فكان ينبغى لهذا الوقت ان كل واحد منكم يرسل لنا شيئاً من أثمار شغله وآثار مهارته ، فاذا لم تغيروا هذه البطالة بشدة الشغل والاجتهاد والغيرة وجئتم إلى مصر بعد قراءة بعض الكتب فظننتم أنكم مثلهم فى العلوم والفنون فان ظنكم باطل ، فعندنا ولله الحمد والمنة رفقاؤكم المتعلمون يشتغلون ويحصلون الشهرة فكيف تقابلونهم إذا جئتم بهذه الكيفية وتظهرون عليهم كمال العلوم والفنون ، فينبغى للانسان أن يتبصر فى عاقبة أمره وعلى العاقل أن لا يفوت الفرصة وأن يجنى ثمرة تعبه ...

فان أردتم أن تكسبوا ارضاءنا فكل واحد منكم لا يفوت دقيقة واحدة من غير تحصيل العلوم والفنون ، الخ . الخ

ويحدثنا الشيخ رفاعة أن هذا الخطاب كان له فى أنفس الطلاب تأثير شديد ، وكان من نتائجه أن صاروا يكتبون إلى مصر فى كل شهر بياناً بما قرأوه وما تعلموه

* * *

أيها السادة ، سمعتم اسم المسيو جومار فى هذه الخطبة غير مرة ، وعرفتم فضله على تلك البعثة ، فمن الخير أن نشير إلى أن محمد على حفظ له ذلك الجميل ، فأرسل إليه خطاب ثناء فى ١٠ يناير سنة ١٨٣٤ وترون ذلك الخطاب فى كتاب سمو الأمير عمر طوسون عن البعثات

أما بعد فقد كان المسيو جومار واثقاً كل الثقة وهو يلقى أول خطبة فى توزيع الجوائز على أول مدرسة مصرية ، وقد حققت الأيام ظنه فكان أولئك المبعوثون رسل علم وهداية وكانت معارفهم الأدبية والعلمية أساساً لما عرفت مصر من أصول التمدن الحديث.

وأنا أيها السادة فى أول خطبة لتوزيع الجوائز على طلبة القسم المصرى أثق بتلاميذى أكثر مما كان يثق المسيو جومار بتلاميذه ، وأعتقد أن القسم المصرى بالليسيه سيخرج لكم نماذج جميلة من الشبان المثقفين الذين يعرفون واجبات الرجال

نحن نعرف تلاميذنا أيها السادة ، وأؤكد لكم أننا وضعنا فى صدورهم جذوة لن تخمد ، وهديناهم إلى نمير من المعارف لن ينضب ولن يغيض

والتلاميذ الذين يفرحون اليوم بتسلم الجوائز خليقون أن ينسوا إساءتنا اليهم أيام الدرس ، فقد أسرفنا فى إثقالهم بالواجبات وعاقبناهم أحياناً على هفوات صغيرة لا تستحق العقاب ، إنهم خليقون أن ينسوا عنفنا وقسوتنا فى معاملتهم فقد كنا على يقين من أن الأبوة تبيحنا حق التحكم فيهم ،

وتفرض علينا أن نلقاهم بوجوه تمثل الحزم وقلوب تضمر العطف والوداد

إنما تمنحكم الجوائز أيها الأبناء النجباء لتنسوا هموم الدرس فماذا تصنعون أنتم لمكافأة أساتذتكم ؟ إن لنا فى ذمتكم جائزة واحدة فتفضلوا بها علينا

أو تدرون ماهى تلك الجائزة ؟ هى أن تكونوا أبطالا يرفعون الوطن ويخدمون الإنسانية

لقد منحناكم خير ما نملك ، فامنحوا الوطن والإنسانية خير ما تملكون

أيها الأبناء النجباء

لقد شقينا لتسعدوا ، فليس من الكثير أن نطلب منكم أن تشقوا ليسعد الوطن وتسعد الانسانية

تذكروا يا أبناءنا الأعزاء أن الشقاء فى سبيل الخير هو السعادة الغالية التى ينشدها أرباب القلوب

زكى مبارك

فى الأدب الانجليزى

شكسبير والأدب العربى

للأستاذ جريس القسوس

(مهداة الى الأستاذ فخرى أبو السعود)

يقف من يتعمق فى دراسة الأدبين العربى والانجليزى على ظاهرة غريبة حرية باهتمام من يعنون بدراسة الآداب الأفرنجية، أعنى بها التماثل الظاهر بين مايرد فى كلا الأدبين من قصص وحكم وآراء فلسفية ؛ وهو تماثل يحمل المرء على الاعتقاد الجازم بأن أحد هذين الأدبين قد اقتبس من الآخر ، أو تأثر به تأثراً بعيداً

وفى روايات شكسبير خاصة من القصص والحكم والكنايات والاشارات ما يثبت أن مؤلف هذه الروايات الخالدة كان ملماً بعض الالمام بالأدب العربى ، وخاصة القديم منه ، ولا نقول العكس لأن هذه القصص المتشابهة وردت فى الآداب العربية قبل الانكليزية بعهد طويل .

وأننى لا أرى مبرراً للزعم بأن شكسبير نقل حكمه وآراءه الفلسفية عن الادب العربى ، إذ أن الشاعر فى كل آن ومكان وفى أية حالة أو ظرف من ظروف الحياة . لا يخرج عن كونه إنساناً يتألم ويحس بما يحس به غيره من الشعراء عند الامم الاخرى ، وإن اختلفوا لغة وجنساً ، فالحياة والطبيعة البشرية ، اللتان هما المصدران الرئيسيان واللتان يستمد منهما الشاعر المخلد وحيه ، إنما هما ثابتتان لا تتغيران أصلا فى كل بيئة وزمان ، فشكسبير والمتنبى ، وبيرون وعمر بن أبى ربيعة ، وشلى وموسيه ، ودانتى وأبو العلاء ، جميعهم حلقوا فى سماء الشعر ، واختلجت فى صدورهم أحاسيس وأخيلة وفكر متماثلة بعض التماثل فى المعنى ، وإن كانت تختلف بما ألبسته هذه المعانى الرائعة من أثواب قشيبة منمقة . لهذا ترى العباقرة فى كل باب وفن يتجردون من السفاسف البشرية التافهة والهنات السخيفة التى يتمسك بأذيالها فئة الجهال ، كالفروق الدينية والجنسية واللغوية ، إذ يتسامى العباقرة عن كل تعصب ذميم ممقوت وينضوون تحت لواء مملكة واحدة هى فوق هذه الممالك التى تظهر متباينة الالوان على المخططات الجغرافية

ولعل هذا القول يصدق على التشابه الظاهر بين الحكم والآراء الفلسفية الواردة فى شكسبير والادب العربى ، أكثر منه على الخرافات والقصص العامية .

فهذه تتداولها الألسن من قطر إلى قطر وتتناقلها الأجيال من عهد إلى عهد ؛ ولاحرج على الأديب المنتج من تضمين أدبه قصة عامية تلقاها عن أمة أخرى بالرواية أو المطالعة . وللعالم والأديب الكبير بيزا Beza قنصل رومانيا السابق فى فلسطين . أبحاث شيقة حول موضوع شكسبير والخرافات الشرقية . وقد سرد فى محاضرة له قيمة سماها : Sheakespeare V. the Ohiental Folklore (شكسبير والقصص العامية الشرقية) طائفة من القصص والخرافات التى كانت تدور على ألسنة العوام والفلاحين فى الشرق ، وحين

رجع الصليبيون إلى أوروبا نقلوا معهم الشيء الكثير منها ، فانتشرت تلك القصص بين الخاصة والعامة فى الأوساط الأوربية . فكان شكسبير أحد أولئك الذين ذكروا هذه القصص فى منتوجاتهم الأدبية . وأنا لا أدرى إلى أى حد تبلغ هذه النظرية من الصحة . بيد أننى وقفت على قصص عديدة فى روايات شكسبير ، ذكرتنى بأخرى فى الأدب العربى ، شبيهة بها بعض الشبه .

ولا إخال أحداً طالع رواية مكبث Macbeth ولا يذكر لأول وهلة قصة زرقاء اليمامة . فشكسبير قد ضمن هذه الرواية فكرة الغاب المتحرك . إذ حينما عبأ مكدوف Macduff جيشه العظيم منتقما لوالده المغدور به ، ومستعيداً ملكه المغتصب من مكبث القائد الطاغية العنيد ، بعث مكبث من يستطلع أمر العدو ، فاعتلى أحد جنده ربوة عالية تشرف على جيش عدوه . وبدلا من أن يرى جيشاً لجبا ، رأى غابا كثيفاً يتحرك نحوه رويداً رويداً . فعاد الرسول وأخبر مولاه بما رأى ، فأيقن مكبث أنه لا محالة هالك ، إذ بذاك تتحقق نبوءة الساحرات الثلاث اللاتى ظهرن له فى أول عهده ، وتنبأن له باعتلاء العرش ، وأنه لن يلقى حتفه حتى يرى غاب برنام Birnam « wood » يتحرك نحو مقاطعة دنسنان « Dunsinane » . وما كان غاب برنام الذى شاهده جندى الطليعة يتحرك إلا جيش مكدوف متستراً بأشجار اقتطعها وحمل كل جندى منهم شجرة يسير تحتها متخفياً ليتمكنوا بذلك من مفاجأة العدو ، والإيقاع به على حين غرة . وهكذا أسفرت المعركة عن انهزام مكبث ولقاء حتفه على يد الابن الثائر .

وصاحب الاغانى (١) يذكر كيف كانت زرقاء اليمامة ترى الجيش من مسير ثلاثين ميلا ، وكيف أن قوماً آخرين غزوا قبيلتها ، فلما قربوا من مسافة منظرها ، قالوا : « كيف لكم الوصول مع الزرقاء » ، فأجمعوا على اقتلاع أشجار تستر كل منها فارساً إذا حملها . ففعلوا ذلك وساروا . فأشرفت الزرقاء كعادتها ، فأجابت قومها وقد سألوها « ما ترى » ، قائلة : « أرى شجراً يسير » ، فقالوا : « كذبت أو كذبتك عينك » ، واستهانوا بقولها ، فلما أصبحوا ، صبحهم القوم ، فاكتسحوهم فقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وقيل أخذوا الزرقاء فقلعوا عينيها

وقصة أخرى يشير إليها المستشرق الانكليزى الشهير نيكلسون فى كتابه Literary History of the Arabs. فى سياق البحث عن الحياة العامية فى القسم الجنوبى من جزيرة العرب ولقد وردت هذه القصة فى قصيدة (أسعد كامل أو أبو كرب) التى أطلق عليها نيكلسون اسم (قصيدة الساحرات الثلاث «The Ballad of the three witches» ذلك لما بينها وبين خرافة الساحرات الثلاث . اللواتى يمثلن ذلك الدور المدهش فى رواية مكبث . من تشاكل وتشابه عظيمين . والقصيدة كما سترى ، موضوعة فى قالب أقرب إلى العامية منه إلى الفصحى . وقد نقلها فون كريمر Von Kremer المستشرق الألمانى إلى الألمانية مودعا إياها كتابه Altarabische Gedichte وكذلك نقلها نيكلسون إلى الإنكليزية فى كتابه المذكور (١)

وفى هذه القصيدة يخاطب أسعد ابنه حسنا ويوصيه بالبطولة ، ويسرد له فى سياق الحديث قصة الساحرات الثلاث كيف صادفنه غلاماً ، فمزجت له الكبرى أولا دواء ، وأعطته فشرب ، وقدمت له الوسطى ضبعاً بريا امتطاه وذلله ، ثم جاءت الصغرى تمرضه فتجنبها . ولما أيقن فيه هذه الجرأة النادرة والقدرة على مقارعة الخطوب ، تنبأن له بعهد سعيد ومستقبل باهر ، يتسنم فيه ذرى المجد . وهكذا تمت النبوءة فقد أصبح أسعد ، على ما جاء فى القصيدة ، قائد جيش مجر ، ثم ملكا تهابه الأعداء .

وأنت تذكر أن مكبث كان فى أول عهده قائدا مغوارا فى عسكر الملك دانكين Duncen ولما عاد هو وبنكو Benku مظفرين لقيا فى طريقهما ، ثلاث عجائز شمط ، دأبهن القيام بأعمال سحرية خارقة ، ولهن القدرة على قراءة المستقبل ، ومعرفة الغيب فتنبأن أن سيكون مكبث مبدئياً من الشرفاء ، ثم يعتلى العرش . وبعد ذلك بقليل تحقق القسم الأول من النبوءة ، فقد اختار الملك القائد مكبث ليكون شريفاً ، ثم تعلم كيف

---

(١) الاغانى . ج ٢ ص ٢١

(1) Literary Hist. of the Arabs p. 19.

سوّلت لمكبث نفسه التطلع إلى الملك ، فدعا الملك « دنكن » إلى وليمة وقضى عليه ليلا ، ثم نصب نفسه ملكا على الشعب

ومن يدرس ما جاء على لسان هؤلاء الساحرات فى رواية مكبث من أقوال دقيقة معقدة ويقابل ذلك بحديث الساحرات فى العقيدة العربية يلقى تشابهاً يدعو إلى الاعجاب الشديد ، فساحرات مكبث من شأنهن طبخ الادواء ومزجها واستعمالها فى جميع أعمالهن السحرية ، وشبيه بذلك ما جاء عن ساحرة أسعد الكبرى ، فقد ورد أنها

جاءت إليه الكبرى بأسقية ... شتّى وفى بعضها دم كدر

ثم إن الضبع الذى قدمته الساحرة الوسطى لأسعد هو من مطايا ساحرات أسعد ؛ وفى رواية مكبث تشير إحدى الساحرات إلى اتخاذ زوجها النمر مطية تحمله إلى حلب العربية

ولا أدرى ما الذى حدا بشكسبير إلى ذكر حلب البلدة السورية العربية . لو لم يكن بين هاتين الخرافتين من علاقة وثيقة وسبب متين

أما وقد بسطنا بعض وجوه الشبه بين الخرافتين ، فمن المستحسن الاتيان بقصيدة أسعد كامل بكاملها ليتسنى بذلك مقابلتها مع الخرافة الشكسبيرية بالتفصيل والتدقيق

الدهر يأتيك بالعجائب و ... الأيام والدهر فيه معتبر
بينا ترى الشمل فيه مجتمعا ... فرقه فى صروفه القدر
لا ينفع المرء فيه حيلته ... فيما سيلقاه لا ولا الحذر
انى زعيم بقصة (عجب) ... عندى لمن (يستردهذا) الخبر
يأتى بتصديقها الليالى و ... الأيام إن المقدور ينتظر
يكون فى (الأسد)[(١)] مر رجل ... (ثم) له فى ملوكه الخطر
مولده فى قرى ظواهر همـدان بتلك التى اسمها (خمر)
يقهر أصحابه على حدث ... السن (ويحقرهم) فيحتقر
حتى إذا أمكنته صولته ... وليس يدرى ما شأنه البشر
أصبح فى هيوم[(٢)] على وجل ... وأهله غافلون ما شعروا
رأوا غلاماً بالأمس عندهم ... أزرى لديهم بجهله الصغر
أن يفقدوه لا در درهم ... لو عاموا العلم فيه لافتخروا
حتى إذا أدركته روعته ... بين ثلاث وثلاثة صخروا
جاءت اليه الكبرى بأسقية ... شتى وفى بعضها دم كدر
فقال هاتى إلىّ أشربهـا ... قالت له ذر فقال لا أذر
فناولته فمـا تورع عن ... حصاه حتى أماده السكر
فنهنهته الوسطى فنازلهـا ... كأنه الليث هاجه (الزعر)[(١)]
قالت له هذه مراكبنا ... فاركب فشرُّ المراكب الحمر
فقال حقاً صدقت ثم سما ... فوق ضبيع قد زانه القمر
فدق منه جنباً فغـادره ... فيه جراح منهـا به أثر
ثم أتته الصغرى تمرضه ... فوق الحشايا ودمعه درر
فمـال عنها بمضجع ضجر ... لا يتساوى الوطاء والزعر[(٢)]
كان إذ ذاك بعد صرعته ... من شدة الجهل تحته (الابر)
فقلن لمـا رأين جرأته ... أسعد أنت الذى لك الظفر
فى كل ما توجهه بوجهها ... وأنت يشقى بحربك البشر
وأنت للسيف والسنان وفى ... الأبدان تبدو كأنها الشمر
(وإن) أنت المهريق (كل) دم ... إذا ترامى (بشخصك) السفر
فارشد ولا تستكن فى (خمر) ... ورد ظفاراً فانهـا الظفر
فلست تلتذ عيشة أبداً ... وللأعادى عين ولا أثر
نحن من الجن يا أبا كرب ... يا تبع الخير هاجناً (الدغر)
فمـا بلوناه فيك من تلف ... عن عمد عين وأنت مصطبر
ثم أتى أهله فأخبرهم ... بكل ما قد رأى فما اعتبروا
فسار عنهم من بعد تاسعة ... إلى ظفار وشانه (الفكر)
فحـلّ فيها والدهر يرفعه ... فى عظم الشأن وهو يشتمر
حتى أتته من المدينة تشـكو الظلم شمطاء قومها غدروا
(أدت) إليه منهم ظلامتها ... ترجو به ثأرها وتنتصر
فأعمل الرأى فى الذى طلبت ... (فكان) كل بذاك يأتمر
فعبأ الجيش ثم سار به ... مثل الدبا فى البلاد ينتشر
قد ملأ الخافقين عسكره ... كأنه الليل حين يعتكر
تعم أعداءه (كتائبه) ... وليس يبقى فيهم ولا يذر
حتى مضى منه (لثانية) ... وفاز بالنصر ثم ينتصر
إنا وجدنا هذا يكون معاً ... فى علمنـا والمليك مقتدر
فالحمـد لله والبقاء له ... كل إلى ذى الجلال مفتقر

(السلط – شرق الأردن)

جريس القسوس ب . ع

مدرس اللغة الانجليزية فى مدرسة السلط التجهيزية

(١) الأسر (٢) أهنوم

(١) الذعر (٢) الوعر

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

٩٠ — من اكتتب ضمناً بعثه الله ضمناً

فى (الفائق) للزمخشرى :

قال عمر (رضى الله عنه) : من اكتتب ضمناً بعثه الله ضمناً (١) . وهو الرجل يضرب عليه بالبعث فيتعالّ ويتمارض ولامرض به . ويحكى أن أعرابياً جاء إلى صاحب العرض فقال :

إن تكتبوا الضمنى فانى لضمن من داخل القلب وداء مستكن

٩١ — منذ ثلاثين سنة أنتظر

سئل الشاعر الاهوازى كيف أصبحت ؟ فقال : أصبحت (والله) أظرف الناس ، وأشعر الناس ، وآدب الناس .

فقال السائل : اسكت حتى يقول الناس ذلك .

فقال : أنا منذ ثلاثين سنة انتظر الناس ، وليسوا يقولون .

وعزيز على مدحى لنفسى غير أنى جشمته للدلاله

وهو عيب يكاد يسقط فيه كل حر يريد يظهر حاله (٢)

٩٢ — حلقة ، حلقة

فى تاريخ ابن عساكر :

كان زريع على عسس بلال فقال له يوماً : يابنى ، إن أهل الأهواء (٣) يجتمعون فى المسجد ويتنازعون ، فاذهب فتعرف ذلك ، فذهب ثم رجع إليه ، فقال : ما وجدت فيه إلا أهل العربية حلَقة ، حلَقة .

(١) نسب القول فى غير الفائق إلى ابن عمر وإلى عبد الله بن عمرو بن العاص وفى (النهاية) الضمن الذى به ضمانة فى جسده من زمانة أو كسر أو بلاء . المعنى من كتب نفسه فى ديون الزمنى ليعذر عن الجهاد ولا زمانة به بعثه الله يوم القيامة زمناً

(٢) (يظهر) بالرفع . والنصب جائز عند الكوفيين وحجتهم : (ألا ايهذا الزاجرى أحضر الوغى) وغيره . والشعر لابن الرومى

(٣) أهل الأهواء : أهل البدع ، النحل الزائفة

فقال له : ألا جاست إليهم حتى لا تقول : حلْقة، حلْقة (١) ؟

٩٣ — الخاطر

قال ابن جنى فى (الخصائص) :

حدثنى أبو على (الفارسى) قال : قلت لأبى عبد الله البصرى : أنا أعجب من هذا الخاطر فى حضوره تارة ومغيبه أخرى ، وهذا يدل على أنه من عند الله ، فقال : نعم ، هو من عند الله إلا أنه لابد من تقديم النظر ، ألا ترى أن حامداً البقال لا يخطر له .

ومن ظريف حديث الخاطر أنى كنت منذ زمان طويل رأيت رأياً جمعت فيه بين معنى آية ومعنى قول الشاعر :

وكنت أمشى على رجلين معتدلا

فصرت أمشى على أخرى من الشجر

ولم أثبت حينئذ شرح الجمع بينهما ثقة بحضوره متى استحضرته ، ثم إنى الآن وقد مضى له سنون أعان (٢) الخاطر واستثمده (٣) وأفانيه (٤) وأتودده على أن يسمح لى بما كان أرانيه من الجمع بين معنى الآية والبيت ، وهو معتاص متأبّ ، وضنين به غير معط .

٩٤ — أفضل الناس بعد رسول الله

أتى شيعى وسنى أبا نواس فقالا : أى الناس أفضل بعد رسول الله ؟

فقال : أفضلهم بعده يزيد بن الفضل .

فقالا : ومن يزيد بن الفضل ؟

فقال : رجل يعطينى كل سنة ثلاثة آلاف درهم ...

٩٥ — ريبة

فى (الكشاف) :

عن بعض العرب أنه سئل عن نسبه ، فقال : قرشى والحمد لله ! !

فقيل له : قولك : (الحمد لله) فى هذا المقام ريبة . .

(١) يرى بلال — كما يرى ابن السكيت — تسكين اللام ، وقد حكى سيبويه فتح اللام . وحكى الأموى كسر الحاء وسكون اللام (وهي لغة بنى الحارث بن كعب)

(٢) فى اللسان : عانه عنانا ومعانة كما يقال : عارضه معارضة وعراضا

(٣) فى الأساس : استثمدنى فلان فثمدته أي استعطاني فأعطيته

(٤) فى اللسان : المفاناة : المداراة وفانيت الرجل داريته وسكنته

٩٦ — أستريح منه اليك

فى (الصناعتين) لأبى هلال العسكرى :

قال معاوية (رضى الله عنه) لابن أوس : ابغ لى محدثاً

قال : أو تحتاج معى إلى محدث ؟!

قال : أستريح منه اليك ، ومنك اليه ، وربما كان صمتك فى حال أوفق من كلامك .

٩٧ — والى شرطة بغداد وأهل السنة والشيعة سنة ٤٤٢

فى (النجوم الزاهرة) لابن تغرى بردى :

فى سنة (٤٤٢) كان من العجائب أنه وقع الصلح بين أهل السنة والشيعة ، وصارت كلمتهم واحدة . وسبب ذلك أن أبا محمد النسوى ولى شرطة بغداد ، وكان فاتكا ، فاتفقوا على أنه متى رحل اليهم قتلوه ؛ واجتمعوا وتحالفوا . وأذن بباب البصرة بـ (حى على خير العمل) وقرىء فى الكوخ فضائل الصحابة ، ومضى أهل السنة والشيعة إلى مقابر قريش فعد ذلك من العجائب . فان الفتنة كانت قائمة ، والدماء تسكب ، والملوك والخلفاء يعجزون عن ردهم ، حتى ولى هذا الشرطة

٩٨ — تغير شعره ورق طبعه

قال السمعاني : لما ورد على بن حسن الباخرزى بغداد مدح (القائم بأمر الله) بقصيدته التى صدر بها ديوانه وهى :

عشنا إلى أن رأينا فى الهوى عجبا

كل الشهور وفى الأمثال : عش رجبا

أليس من عجب انى ضحى احتملوا

أوقدت من ماء دمعى فى الحشا لهبا

وإن أجفان عينى أمطرت ور قا

وان ساحة خدى انبتت ذهبا (١)

وان تلهب برق من جوانبهم

توقـد الشوق فى جنبىّ والتهبا

(١) الورق الفضة . وفى المصباح : الورق النقرة المضروبة ومنهم من يقول : النقرة مضروبة كانت أو غير مضروبة . والنقرة القطعة المذابة من الفضة

فاستهجن البغداديون شعره وقالوا : فيه برودة العجم ، فانتقل إلى الكوخ وسكنها وخالط فضلاءها وسوقتها ثم أنشأ قصيدته التى أولها :

هبت على صبا تـكاد تقول ... إنى اليك من الحبيب رسول

سكرى تجشمت الربى لتزورنى ... من علتى ، وهبوبها تعليل

فاستحسنوها وقالوا : تغير شعره ، ورق طبعه

٩٩ — خطباء الطير

قال الثعالبى : خطباء الطير هى الفواخت(١) والقمارى (٢) والراوشين (٣) والعنادل (٤) وما أشبهها ، وأظن ان أول من اخترع هذه الاستعارة المليحة أبو العلا السروى فى قوله :

أما ترى قضب الأشجار لابسة ... حسناً يبيح دم العنقود للحاسى؟

وغردت خطباء الطير ساجعة ... على منابر من ورد ومن آس (٥)

١٠٠ — ما مدحته الا ثقة بضمانك

مدح ابن نباتة الكبير فخر الدولة وزير بهاء الدولة بن عضد الدولة بقصيدة قال فيها :

لـكل فتى قرين حين يسمو ... وفخر الملك ليس له قرين

أنخ بجنابه واحكم عليه ... بما أملته وأنا الضمين

فامتدح بعض الشعراء فخر الدولة بعد هذه القصيدة ، فأجازه بجائزة لم يرضها ، فجاء الشاعر إلى ابن نباتة وقال له : أنت غررتنى ، وأنا مامدحته إلا ثقة بضمانك فتعطينى ما يليق بمثل قصيدى ، فأعطاه من عنده شيئاً رضى به ، فبلغ ذلك فخر الدولة ، فسير لابن نباتة جملة مستكثرة لهذا السبب .

(١) (الفاختة) ضرب من الحمام المطوق . الجواليقي : الفاختة مشتقة من الفخت الذى هو ظل القمر

(٢) القمرية ضرب من الحمام جمعه قمارى بكسر الراء غير مصروف (وفتحها بعضهم) وقمر او الأنثى من القمارى قمرية والذكر ساق حر (التاج) وفى المصباح القمري من الفواخت منسوب إلى طير قمر والأنثى قمرية والذكر ساق حر

(٣) الورشان وجمه وراشين وورشان (بكسر الواو وسكون الراء) هو ساق حر . وقيل طائر يتولد بين الفاختة والحمامة

(٤) العنادل جمع عندليب وهو البلبل

(٥) الآس : ضرب من الرياحين ، خضرته دائمة أبدا ، واحدته آسة . وهو المعروف عند العامة بالريحان

١٠١ — أحسنت والله ! هذا أحسن

قال ابن الخطيب البغدادي : كان بين أبوي العباس (ثعلب والمبرّد) منافرات كثيرة ، والناس مختلفون في تفضيل كل واحد منهما على صاحبه . وقال محمد بن خلف : كان بين المبرد وثعلب من المنافرة ما لا خفاء به ، ولكن أهل التحصيل يفضلون المبرد على ثعلب

قال عبيد الله (١) بن عبد الله بن طاهر : حضرت مجلس أخي محمد بن عبد الله بن طاهر ، وحضره أبو العباس ثعلب وأبو العباس المبرد النحويان . فقال لي أخي محمد : قد حضر هذان الشيخان وأنا أحب أن أعرف أيهما أعلم ، فاجلس في الدار الفلانية ، ويحضر هذان الشيخان بحضرتك ويتناظران ففعلت ما أمر ، وحضرا فتناظرا في شيء من علم النحو ما أعرفه ، فكنت أشاركهما فيه ، إلى أن دققا فلم أفهم ، ثم عدت بعد انقضاء المجلس ، فسألني فقلت : إنهما تكلما فيما أعرف فشاركتهما في معرفتي ، ثم دققا فلم أعرف ما قالا . ولا والله يا سيدي ، ما يعرف أعلمهما إلا من هو أعلم منهما ، ولست ذاك الرجل فقال أخي : أحسنت والله ! هذا أحسن (٢)

(١) له محل من الأدب والتصرف في فنونه ورواية الشعر وقوله ، والعلم باللغة وأيام الناس ، وعلوم الاوائل من الفلاسفة في الموسيقى والهندسة وغير ذلك مما يجل عن الوصف (الأغاني) (٢) يعني اعترافه بذلك

هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألماني فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

نشيد الرقص

ومر زارا بالغاب يوماً ومعه صحبه فاكتشف وهو يفتش عن ينبوع مرجاً منبسطاً بين الأشجار والأدغال . وكان هنالك رهط من الصبايا يرقصن بعيداً عن أعين الرقباء . وإذ لمحن القادم وعرفنه توقفن عن الرقص ولكن زارا اقترب منهن وخاطبهن قائلا .

— داومن على رقصكن ، أيتها الآنسات الجميلات ، فما القادم بمزعج للفرحين وما هو بعدو للصبايا . انا من يدافع عن الله أمام الشيطان ، وما الشيطان إلا الروح الثقيل فهل يسعني أن أكون عدواً لما فيكن من بهاء ورشاقة وخفة روح ؟ وهل لي أن أكون عدواً للرقص الالهي ترسمه مثل هذه الأقدام الضوامر الرشيقات . . . ؟

لا ريب في أنني غابة اشتبكت فيها قاتمات الأشجار وساد الحلك على أرجائها ولكن من يقتحم ظلماتي بلا خوف ليجدن تحت سرواتي الرهيبات طرقاً تحف بجانبيها الورود . وليجدن أيضاً الاله الصغير الذي تشتاقه الصبايا منطرحا بسكون قرب الينبوع وقد أغمض عينيه

لقد نام في وقت الظهيرة ، هذا الاله المتراخي ، ولعله سعى طويلا ليصطاد من الفراشات عدداً كبيراً . .

لا يكدر كن مني أيتها الراقصات الجميلات تأديبي لهذا الاله الصغير ، ولعله يصيح ويبكي ولكنه إله يجلب المسرة حتى في بكائه . فلسوف اقتاده إليكن والدموع سائلة على خديه ليطلب اليكن أن ترقصنه ، وإذا ما رقص فسأرافقه أنا بانشادي فما تجيء نغماتي إلا هزيجاً أصفع به الروح الثقيل ، روح الشيطان المتعالي الذي يقول الناس إنه يسود العالم

وهذه هى الأغنية التى رفع زارا صوته بها بينما كان (كوبيدون) إله الحب يرقص مع الصبايا الفاتنات :

« لقد حدقت يوماً فى عينيك ، أيتها الحياة ، فحسبتنى هويت إلى غور بعيد القرار . غير أنك سحبتنى بشابك من ذهب وأطلقت قهقهة ساخرة عند ماقلت إن غدرك لاقرار له . وأجبتنى : — هذا ماتقوله الأسماك جميعها ، فهى إذ تعجز عن سبر الأغوار تحسبها لاقرار لها . وهل أنا إلا المتقلبة النفور ؟ وهل أنا إلا امرأة ، وامرأة لافضيلة لها . . لقد تقول الناس كثيراً عن صفاتى ولكنهم أجمعوا على أننى غير المتناهية ، المليئة بالأسرار

أيها الرجال ، إنكم ترون فى فضائلكم ، فأنتم لاقبل لكم بادراك شىء آخر غيرها أيها الفضلاء . . .

هذا ما كانت تقهقه به فى سخريتها تلك الحياة ، غير أننى لا أثق بها ولا أصدق ضحكها عند ما تهجو نفسها

وناجيت يوماً حكمتى النفورة فقالت لى غاضبة : — إنك تطلب الحياة وتشتاقها وتحبها وذلك ما يحفز بك إلى بذل الثناء عليها

ولولا أنى تمالكت نفسى لكنت رددت بعنف على حكمتى وأعلنت الحقيقة لها وهى تغاضبنى وهل من جواب أشد وقعا على الحكمة من أن تهتك سرائرها

ما أحب شيئاً من صميم الفؤاد إلا الحياة ، ولا يبلغ حبى لها أشده إلا حين أكرهها . وإذا ما أنا اندفعت إلى الحكمة وأغرقت فى الالتجاء إليها فما ذلك إلا لأنها تبالغ بتذكيرى بالحياة . فان للحكمة عينى الحياة ولها ابتسامتها ، بل لها أيضاً شابكها المذهب ، فما حيلتى بهما إذا تشابهتا إلى هذا الحد ؟

وعند ما سألتنى الحياة عن الحكمة أجبتها : هى الحكمة يشتهيها الانسان بكل قوته ولا يشبع منها . فهو يحدق فيها ليتبين وجهها من وراء القناع ويمد أصابعه بين فرجات شباكها متسائلا عن جمالها وما يدريه ما هو هذا الجمال ومع هذا فان أقدم الأسماء لا تنفك عن الانجذاب إلى طعمة شباكها فهى متقلبة شديدة المراس . ولكم رأيتها تعض على شفتها وتسرح شعرها ، ولعلها شريرة ومخادعة . بل لعل لهاصفات المرأة بأجمعها فهى لا تبلغ أبعد مداها فى اجتذاب القلوب إلا عند ما تهجو ذاتها ...

وبعد أن قلت هذا عن الحكمة للحياة ، مرت على شفتيها ابتسامة شريرة وغضت من جفنيها قائلة : ـ عمن تتكلم ... لعلك تتكلم عنى أنا ... وهل للانسان أن يعلن مثل هذه الأمور بوجه من تعنيه حتى ولو كان محقاً . فما قولك الآن فى حكمتك يا هذا ... ؟

وفتحت الحياة المحبوبة عينيها فحسبتنى عدت إلى التدهور فى الهاوية البعيدة القرار »

هذا ما يتغنى زارا به وما انتهى الرقص وتوارت الصبايا عن أبصاره حتى تملكه حزن عميق فقال : لقد اختفت الشمس وترطب المرج وقدبدأ الغاب يرسل لفحاته الباردات . إن شيئا مجهولا يدور حولى ويحدجنى قائلا : ـ ألم تزل على قيد الحياة ، يا زارا ؟ ولماذا أنت حى بعد ؟ وما هى فائدة هذه الحياة ؟ ما هو مصدرك وإلى أين مصيرك أفليس من الجنون أن تبقى فى الحياة ؟

ويلاه ، أيها الصحاب ، إن ما يتناجى فىّ إنما هو الغسق فاغتفروا لى شجونى . لقد جاء المساء فاغتفروا لى قدوم المساء ...

هكذا تكلم زارا ....

الكهنة

وتمثل زارا مرور رهط من الكهنة أمامه ، فقال لأتباعه : هؤلاء هم الكهنة ؛ فعليكم ـ وإن كانوا أعدائى ـ أن تمروا أمامهم صامتين وسيوفكم ساكنة فى أغمادها فإن بينهم أبطالا ومنهم من تحملوا شديد العذاب فهم لذلك يريدون أن يعذبوا الآخرين .

إنهم لأعداء خطرون ، وما من حقد يوازى ما فى اتضاعهم من ضغينة ، وقد يتعرض من يهاجمهم إلى تلطيخ نفسه . ولكن بينى وبينهم صلة الدم وأنا أريد أن يبقى دمى مشرفاً حتى فى دمائهم .

وعاد زارا يتمثل أنهم مروا وانصرفوا ، فشعر بألم شديد قاومه لحظة حتى سكن روعه ، فقال : ـ إننى أشفق على هؤلاء

الكهنة، وأنا لا أزال أنفر منهم ولكنني تعودت الاشفاق مرغماً نفوري منذ صحبت بني الانسان، ومع ذلك فأنا أتألم مع هؤلاء الكهنة لأنهم في نظري سجناء يحملون وسم المنبوذين في العالم، وما كبلهم بالاصفاد إلا من دعوه مخلصاً لهم، وما أصفادهم إلا الوصايا الكاذبة والكلمات الوهمية، فمن لهؤلاء من يخلصهم من مخلصهم ...

لقد لاحت لهؤلاء الناس جزيرة في البحر على حين ثارت عليهم زوبعة فنزلوا اليها فاذا هم على ظهر تنين نائم على العباب

وهل من تنين أشد خطراً على أبناء الحياة من تنين الوصايا والكلمات الوهمية وقد كمن فيها المقدور طويلا حتى حان وقت انتباه التنين؟ وها هو يهب مفترساً جميع من بنوا مساكنهم على ظهره.

انظروا إلى المساكن التي بناها هؤلاء الكهنة وقد أسموها كنائس وما هي إلا كهوف تنبعث روائح التعفن منها. وهل للروح أن ترتفع إلى مستواها تحت لألاء هذه الأنوار الكاذبة وفي هذا الجو الكثيف، حيث لا يسود إلا عقيدة تصم الناس بالخطيئة وتأمرهم بصعود درجات الهيكل زحفاً على الركب

انني لأفضل أن أنظر الى اللحظات الفاحشة من أن أرى هذه العيون أطبقت أجفانها معلنة خشوعها واستغراقها.

من ذا الذي اخترع هذه الكهوف وهذه الدرجات يرقاها النادمون زاحفين، أهي من إيجاد من استحيوا من صفاء السماء فلجأوا إلى الاستتار؟

لن أعود بقلبي أج مساكن هذا الاله إلا اذا انثلمت قبابها واخترقها نور السماء الصافية لتتكشف عن الشقائق الحمراء النابتة على جدرانها المتهدمة.

لقد أراد هؤلاء الكهنة أن يعيشوا كأشلاء اموات فسربلوا جثثهم بالسواد فاذا هم ألقوا مواعظهم انتشرت منها رائحة اللحود.

إن من يجاور هؤلاء الناس فكأنما هو ساكن على ضفة الأنهار السوداء حيث لا يسمع إلا نقيق الضفادع الحزين

ليسمعني هؤلاء الناس نشيداً غير هذا النشيد لأمرن نفسي على الاعتقاد بخلصهم، إذ لا يلوح لي أن أتباع هذا المخلص قد ظفروا بالخلاص.

لكم أتمنى أن أراهم عراة، وهل لغير الجمال أن يدعوا الناس إلى التوبة، ولكنهم عبارة عن فجائع مستترة لا يسعها أن تجتذب إلى الايمان أحداً.

والحق، أن مخلصي هؤلاء الكهنة نفسهم لم ينحدروا من سماء الحرية وما وطئوا مسالك المعرفة قط، فما كانت حكمتهم إلا نسيجا ملأته الخروق رقعوه بما أوجد جنونهم من آلهة. لقد أغرقتهم حكمتهم في بحيرة الأشفاق فهم كلما زفروا فيها أرسلوا بجثة غظمى تطفو على سطحها.

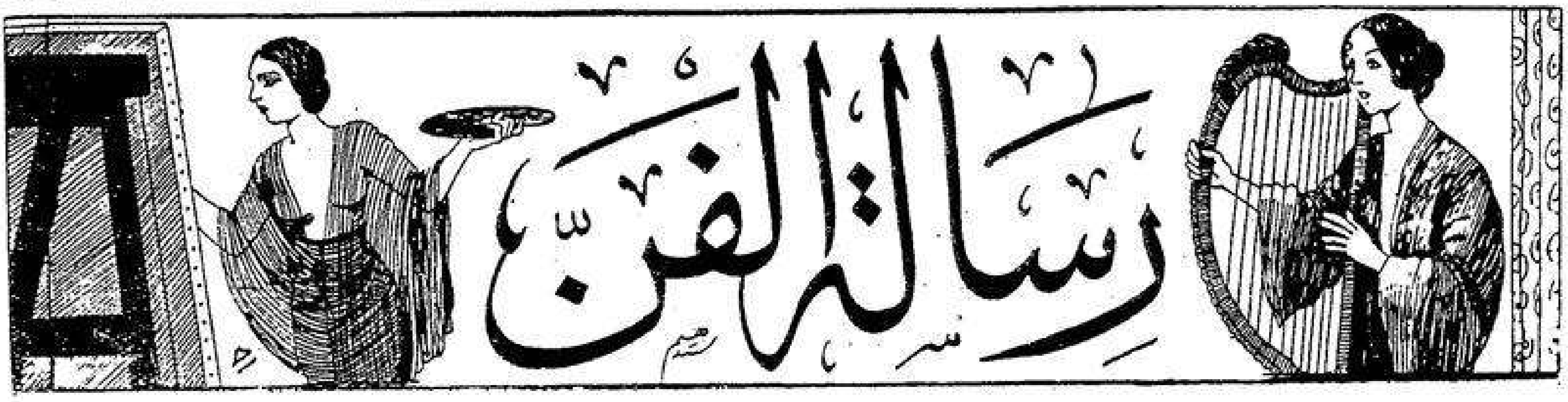
ولقد زعق هؤلاء الرعاة بقطعانهم فمضت متدافعة في فجوة واحدة وقد علا صراخها كأن التوصل إلى مخارج المستقبل ممتنع من غير هذه الفجوة الضيقة. أما والحق ماهؤلاء الرعاة إلا فريق من هذه السائمة وقد ضاقت عقولهم ورحبت نفوسهم وسرعان ما تصغر العقول إذا كبرت النفوس.

لقد تركوا على كل معبر اجتازته أرجلهم آثار الدماء، إذ كانوا يستلهمون جنونهم ليعلموا الناس أن الدماء تقوم شاهدة للحق. وقد جهلوا أن أفسد شهادة تقوم للحق إنما هي شهادة الدم، لأن الدم يقطر سماً على أنقى التعاليم فيحولها إلى جنون وإلى أحقاد.

أفتقيمون للحق دليلا من اقتحام أحد الناس للهب في سبيل تعاليمه. وهل لمثل هذا التعليم ما للعقيدة التي تتولد متقدة من لهبها نفسه؟ إذا ما تلاقى رأس بارد بقلب مضطرم نشأت من التقائهما تلك العاصفة التي يدعوها الناس مخلصاً. ولكم وجد على الأرض من رجل أعرق منشأ وأرفع مقاماً ممن يدعوهم الشعب مخلصين، وما كان هؤلاء المخلصون إلا عاصفات كاسحات تهب متوالية على الأرض

اذا ما كنتم تنشدون سبل الحرية، أيها الاخوة، فعليكم أن تنقذوا أنفسكم حتى ممن يفوقون هؤلاء المخلصين عظمة ومجدا. فان الانسان الكامل لم يظهر على الأرض بعد. لقد حدقت باعظم رجل وباحقر رجل عن كثب وهما عاريان فظهرا لعياني متشابهين، بل رأيت أعظمهما أشد توغلا في المعائب البشرية من الآخرين.

هكذا تكلم زارا ....



فى فن التصوير

يقف الانسان أمام صورة من الصور ويلقى عليها نظرة عارضة عاجلة فيصدر فى الحال حكمه عليها أعجب بها أم لم يعجب؟ أنالت من نفسه ارتياحا ؟ أسكن وجدانه إليها ؟ ولماذا أعجب بها ؟ ولماذا لم يعجب ؟ وما هى العاطفة الكامنة التى تصدر هذا الحكم بتلك السهو. لها أو عليها ؟ أهو الذوق ؟ وما هو الذوق ؟ أهو العقل ؟ وعلام يستند العقل ؟ هذا ما نحاول شرحه فى هذا المقال متوخين الايجاز فى تناول موضوع التصوير بصفة عامة لأنه فن واسع الأفق لا يحيط به مقال واحد ولا كتاب واحد .

ليس التصوير إلا لغة للتعبير وأسلوباً من أساليب الوصف والافضاء عن الشعور والعاطفة ، فكل مصور درس أصول التصوير وقواعده هو ككل إنسان تلقن قواعد الكلام وأصول الصرف والنحو ليستطيع التخاطب بلغة سليمة متآلفة ، ولكن على قدر انتشار اللغة سليمة صحيحة غير مشوبة باللحن لا نجد كل متكلم أديباً ولا شاعراً ، فكذلك ليس كل من تناول ريشة الفن وأتقن مزج الألوان فناناً موفقاً ، وكذلك على قدر التفاوت بين طبقات الأدباء والشعراء يتفاوت الفنانون مقدرة وعجزاً .

فلغة التصوير على ذلك ليست إلا أداة أو وسيلة لغاية بعيدة يريد المصور أن يبلغها ، ونحن إذ ننظر إلى الصورة يجب أن نبحث أولا عن هذه الغاية - ماذا يريد صانعها أن يقول . فاذا لم نجد من وراء صورته فكرة أو غاية مفيدة فالصورة لغو لا طائل تحته ، إذ لكل صورة قصة يجب أن تقصها وإلا فهى بكماء صماء أو هراء من القول وهذر مخطوط ومضيعة للجهد والوقت بالغة ما بلغت أداة التعبير من إتقان . وأقل ما نلتمسه فى صورة من الصور أن نستخرج لها ميزة تميزها وشخصية تتسم بها . هل سجلت شيئاً جديداً كان خافياً علينا ؟ أو هل فسرت معنى مجهولا ؟ أو هل مهدت خطوة فى سبيل غرض سام ؟ أو هل ألقت بصيصاً ولو ضئيلا من النور على ظلام الحياة ؟ أوهل أضافت نغمة ولو خافتة إلى موسيقى الكون ؟ اذا التمسنا شيئا من ذلك ووجدنا له أثراً يشير إليه أو لمسنا صدى له فى نفس المصور كان لنا أن نأمل من هذا الفنان شيئا .

المصور العبقرى كالشاعر العبقرى كلاهما كالنبى المعجز غرس الله فى قلوبهم بذرة الخلود تجمع بينهم رابطة الروح السماوى والنور الالهى وهم يصدرون عن إيمان صادق ووحى أمين وإن كان لكل وجهة يوليها وعالم يكشفه .

والمصور الصادق قطعة من الحياة تهذبت وتثقفت ، يرتاد سبيله ملهماً ببصيرة سماوية وقلب دافق الاحساس مرهفه ، ومهجة فياضه الشعور ، ووجدان بالغ الدقة منتهى اللطف ؛ فهو روح مجرد يطير فى كل أفق ، ويحوم فى كل خميلة ، ويرد كل غدير ، ويعتلى كل فنن ، ويدوم فوق كل منظر بهيج فيحيطه بفؤاد خفاق ، ويلتهمه بعين حديدة ، ويحيله أشعة وظلالا ويحمله روحاً بروح تسجله للأبصار فى أسلوب ناطق وخفى ، ويحده بأطار من شعوره وفيض إحساسه .

فاذا كان هذا قدر المصور الفنان الصادق الأمين . إنسان بالغ النبل نقى الروح زكى النفس عظيم السمو لزم أن يكون أسلوبه الذى يضمنه روحه نبيلا على قدر نبله سامياً على قدر سموه ، ولزم أن تكون موضوعاته التى يختارها لأداء فكرته وحكاية قصته ولشرح عاطفته أو غير ذلك من الأغراض ، لزم أن تكون على قدر نبله وسامية على قدر سموه ؛ فالفنان الذى يصور البعث أو الوحى أو الصلاة أو الحزن أو الحب أو الأمومة وما يدخل تحت فصل الجمال الروحى أنبل من المصور الذى يصور الحقد والدمامة أو التبذل والوحشية أو الرذيلة للاستمتاع بتصويرها لا للنهى عنها . هذا تدور خواطره على مشاغل

الناس اليومية المادية ، وذلك لا تتعلق نفسه ولا يحس فى قلبه إلا بكل جليل الشأن . ويلى هذين من يعنى بتصوير الصغير من الأمور والتافه الحقير كلعب الأطفال وأعمال المهرجين وما إلى ذلك ولا ينبغي أن تضيق هذه الحدود إلى أقصى تخومها فنحكم بمقتضاها حكما قاطعاً لا نقض فيه ، إذ أن الفنان النبيل قد يتناول موضوعاً يقل عن مستوى موضوعاته فيسبغ عليه من روحه ويضفي عليه من قدرته وبراعته ، ولكن كثيراً ما يشرئب النقاش الصغير غير الموهوب والمشغول بحقير الأمور إلى تقليد جليلها فلا يبلغ منه مبلغاً ولا يخرج عن الدائرة التى يدور فيها ، وينتهى حيث يبتدىء ، بل أنه يكشف عن عجزه ويدل على ضعفه ولا يتمخض بعد الجهد الشاق والعناء العنيف عن غير ما تطيقه مؤهلاته وما تنتجه قريحة مثله ، ومثل هـذا النقاش يحسب غروره وحيا وطمعه عظمة فى الروح وعلوا فى النفس

وشتان بين الاثنين ! أحدهما كالنحلة لا يغذيها إلا الرحيق ولا تهيم أو تسعى إلا وراء الشذى الذكى والعبق النقى والعرف الندى ، ولا يستهويها إلا الزهر المنور والجو المعطر ؛ والآخر كالزنبور الطنان يقع على الأقذار ويستطعم الأدران ويأكل الحشرات والديدان .

والنحلة تنتج رحيقاً من رحيق ، والزنبور أذى وشرا . تلك رمز التضحية والغيرية ، وهذا عنوان الأنانية والأثرة ؛ تلك متواضعة خجولة تعمل فى رصانة وسكون ، وذلك مدع مغرور صخاب طنان بهرجت الطبيعة من ألوانه وعددت فيها للنميمة عليه والايقاع به أو لتفاديه

فلا تستصغرن من النحلة اندماج لونها وهدوءها ؛ ولا يغرنك من الزنبور بروزه وطنينه .

وكذلك لا يغرنك من الصورة بهرجة الدعاية لها بل ابحث عن الغاية المجيدة وعن التعبير الصادق الجميل .

كثيراً ما يتفق الناس على أن هذه المرأة جميلة ، وأن تلك دميمة ، ويكادون لا يختلفون فى حكمهم ، فما الذى جمع بينهم على رأى واحد ؟ قد يحتج بان هذه هى أذواقهم وهذه أمزجتهم وأنهم يرون أنها جميلة لأن هذا احساسهم فلا تطلب تعليلا ولا تحليلا ، وفى الحق أن المرأة الجميلة تعجبنا لأول ما نراها لأن قلبنا يهفو إلى حسنها ، ونفسنا تصبو إلى جمالها ، ولكننا نتفق فى النزوع إلى جمالها والصبابة اليها بدافع من الغريزة فالغريزة هى فى الواقع التى تؤلف بين الرجال على الاعجاب بجمال المرأة أو هى على الأصح التى كانت منذ الزمن الأول ترغب الرجل فى المرأة ؛ فلما ارتقى وهذب من غرائزه وتسامى بها عن أن تكون مطلقة الحيوانية تغير إلى حد كبير نظره إلى المرأة فأصبح يجل جمالها لذاته مجرداً عن دافع الشهوة ، وبعدت عن خياله تلك الصور التى كانت تجسمها الغريزة الجنسية وتمثلها الرغبة الحيوانية ، فلم نعد نسمع شاعراً يتغنى بثقل الردفين وانقطاع الخصر وكثيب الرمل . ولم نعد نسمع قول بشار بن برد :

أو عضة فى ذراعهـــا ولها فوق ذراعى من عضها أثر
أو لمسة دون مرطها بيدى والباب قد حال دونه الستر

ولم نعد نسمع تلك النواسيات الماجنة وما اليها من دلائل الاحساسات البهيمية ، وإذا بنا تطرق قلوبنا هذه الأغانى الخالدة التى تسمو بأرواحنا ، إذا بنا نسمع العقاد يقول :

أغلى جمالك فى النواظر أنه عوض لشين فى النفوس كثير
وأنا له منها المقـــادة أنه فى الأرض رمز كمالها المحظور

وقوله : —

ان التعاطف بالأرواح بغيتنا وفى القلوب على الأرواح عنوان

وقوله : —

فعش فى جوار الناس شخصاً مجسما
وعش فى فؤادى صورة تتخيل

فالغريزة هى الأصل فى الاعجاب بشىء دون شىء ، ولما تهذبت وارتقت استحالت إلى ما نسميه نبلا أو ذوقاً رفيعاً وإن بقيت للغرائز الأولى بعد نزعاتها .

ولكن هذا الذوق له فصول وأسس ، وله قواعد وقوانين تضبطه وتحده ، فلم يعد جمال الجسم الانسانى صباحة وجه ، وسطوع جبين ، وامتلاء جسم أو نحافته ، أو غير هذه الأوصاف من المعانى المطلقة ، بل وضعت له مقاييس وأطوال — وإلى هنا يكون للذوق ضابط يحفظه فى حدود مرسومة ، ولكنه لا يخضع لها خضوعا مطلقاً ولا ينكمش بين تلك الأعلام والأوضاع الضيقة إذ أنه يكون بذلك جامداً كزاً ذا وجه واحد . ولكن ذلك الجود يتحرك ويحيا بما ينفخ فيه من روح ، وما ينفث فيه من سحر ، فيتخذ صوراً متباينة مختلفة ، وإن كانت كلها تدور فى حدود هذه الأوضاع ، ولكل وجه سيماه

ضربت المثل بجمال الجسم الانسانى ممثلا فى المرأة لأنها مركز اهتمام الرجل ، ولأن الاتفاق على مقياس الجمال فيها يكاد يكون مفروغاً منه . وكلما بعد موضوع الحكم عن أن يكون ذا صلة بغريزة من الغرائز ، أو بعلاقة مباشرة بعاطفة فسيولوجية أو نفسية ، تعقد الموضوع ، وصعب الاتفاق على حكم واحد فيه ، واختلفت الأذواق : فهذا ذوق جميل يصدر حكماً صائباً ، وذلك ذوق فاسد مضطرب الحكم . ولهذا السبب كان لا مناص من أن يوضع لكل شيء حدود يصدر الحكم على أساسها ، فالشجر والنبات ، والنهر والشلال ، والغدير والبحر ، والمحيط والجبل ، والسماء والسحاب ، والأبنية والعمائر . لكل هذه المظاهر أصول وقواعد يؤدى الفن فى حدودها ، وكانت هذه الأصول على ذلك ضابط الذوق إلى حد محدود ، فكأن الذوق الجميل لم ينشأ نشأة لدنية ، بل هو فى الحقيقة غاية الثقافة والتهذيب ، وهو عند ما يقبل شيئاً أو يرفضه يظهر لنا أنه أتى ذلك فى التو بغير سند واضح ، ولكن عمل الذوق فى الحقيقة نتيجة طبيعية لما وعته النفس وكسبه العقل من قضايا مختلفة ومقدمات منطقية وتاريخ حافل من تجارب الحياة

وليس من شأننا هنا أن نعدد الأصول التى تراعى فى فى التعبير عن هذه المظاهر الطبيعية السالفة الذكر فلها مجال آخر نرجو أن يتاح لنا فى المستقبل ، ولكننا هنا سنبسط الشرائط التى يجب توفرها فى الصورة ، بوجه عام ، وفى الفنان أيضاً والتى يمكن بمقتضاها أن نصدر حكماً أدنى للصواب فيما نشاهده من صور الفن وهذه الشرائط هى كما ذكرها جون راسكن:

(١) الصدق والحقيقة (٢) البساطة
(٣) نوع من الابهام السحرى (٤) ايجاز التعبير
(٥) الجرأة (٦) السرعة

هذا ولكى يكون تقديرنا لجمال المظاهر الطبيعية أتم وأوفى يجب أن نجردها من النفعية وننظر لها نظرة خالصة للفن ذاته وللجمال ذاته . فعند ما نرى نهرا جميلا يجرى بين شاطئين بسقت عليهما الأشجار وغطاهما بساط سندسى من العشب يجب أن تقبل أذواقنا جمال هذا المنظر كما خططته يد الله بعيدا عن تدخل يد الإنسان فى التحكم فيه والسيطرة على أجزائه ـــ فنخنق عن ذوقنا أنه أقيم هنا سد اعترض من النهر انسيابه الجميل ـــ وأن هناك آلة رافعة وضعت لتختلس من مائه بضجيجها وصريرها ، وقامت على جانبه شوهاء كالقرحة فى الجسم الغض . وننى عنه أن هناك حطابا قويا يعمل فأسه فى جذع شجرة ليسقطها وليأخذ خشبها ليصنع منه بابا أو نافذة . والينبوع إذ يتسلسل ماؤه على الحصى ويتدفق على الثرى أجمل مما لو أحطناه بسور من البناء لنحصر ماءه ، والسياج الحديدى حول مجموعة من الأشجار مشوه لجمالها ، والعصفور الطليق أجمل من العصفور الحبيس فى قفص ضيق . وهكذا فإن القلب يحس إحساسا خالصا بجمال الطبيعة ويندمج فيها ويخفق لها لأن طبيعة الإحساس العاطفى المحض فى القلب وهو تامورة الحياة فى الجسم الإنسانى ، أجل وهو الذى يستجيب ويلبى كل شيء جميل حى

وإذا أصاب القلب مرض أو تعطلت وظيفته النبيلة لسبب ما كأن كدر صفاءه غضب أو اهتياج أو حقد أو غيرها من الحالات التى تخرجه عن طبيعته انبتت علاقته بالحياة فلم يعد يستجيب لها ولا يحس بها إحساسا سليما صحيحا . وكذلك الحال عند ما نرى مظهرا من مظاهر الطبيعة قد طرأ عليه ما يعطل من طبيعة الحياة فيه . فالزهرة النضرة يعجبنا منها رونقها واتساقها وزهاء لونها ونورها وهى بذلك حية سليمة ، وهى لحياتها جميلة غاية الجمال ، فإذا رأيناها ذاوية خبا رونقها ومالت إلى العدم ؛ والظبى رشيق الحركة وهو سليم صحيح ، فإذا أصيب فى ساقه بعرج فهو سقيم ثقيل ، والطير جميل وهو قوى الجناح سليمه ، فإذا كسر جناحه فهو ضعيف ذليل ـــ وكل هذه المخلوقات سعيدة ما دامت وافرة الحياة سليمة الوظائف وهى بذلك جميلة غاية الجمال

ولا ينبغى أن نقرن النظر للشيء الجميل بتحليله إلى عناصره وتعليل مظاهره فنبحث فى أن ماء النهر يكون من عنصرى الهدروجين والأوكسجين . وأن النهر ينحدر ماؤه بالجاذبية ، وأن الشجر يمتص بجذوره من الأرض عناصر التغذية . وأنه يحيل ثانى أوكسيد الكربون إلى أكسوجين نهاراً والعكس ليلا .

فالنظرة إلى الجمال يجب أن تكون مجردة من جميع هذه العوامل وإلا طغى الفكر المحلل على الذوق السليم وسكتت العاطفة وقد تكلم العقل وانتقلنا إلى عالم مادى وبعدنا عن عالم الروح والكمال .



ربيعة الرقي وقصة الذئب والحمل

يعرف كل متأدب الشاعر الفرنسي المشهور لا فونتين Fontaine ومنظومته المعروفة (الأمثال) « Les Fables » ولكن من تتبع المصادر التي أخذ عنها هذا الشاعر أمثاله، يتبين أن معظم هذه القصص المنظومة التي حكى أكثرها على لسان الحيوان، مأخوذة من مصادر شرقية ولا سيما كتاب كليلة ودمنة وأشباهه. نقلت هذه القصص إلى أوربا قبل عصر لا فونتين بالتراجم اللاتينية أو على ألسنة التجار والمسافرين، وتناولها هذا الشاعر فغيرها لتلائم أذواق بلاده، ثم صبها في قالب من الشعر الفرنسي السلس. وتبع هذه الطريقة شاعر فرنسي آخر اسمه فلوريان بعد لافونتين بنصف قرن.

وليس قصدنا أن نبحث في هذا الموضوع لنكشف عن مرجع كل قصة من أمثال لافونتين، وإنما نريد هنا أن نقتصر على واحدة من أكثر هذه الأمثال ذيوعا، وهي قصة الذئب والحمل التي شاعت حتى طبقت الآفاق وصارت مثلا لتجني الأقوياء على الضعفاء.

وكان كاتب هذه السطور يصحح كتاب «طبقات الشعراء المحدثين» لأبي العباس عبد الله بن المعتز الذي تطبعه لجنة ذكرى جب في انكلترا، وسيظهر عما قريب، فألفيت الحكاية نفسها في قصيدة لربيعة الرقي أحد الشعراء المحدثين، وعلمت أن هذه الحكاية أيضاً مقتبسة من القصص الشرقية القديمة التي كانت شائعة عند المسلمين في عصر ربيعة الرقي وعنهم نقلها أهل أوربا، فنظمها لافونتين واشتهرت في تلك الأقطار.

وقد رأيت أن هذه المسألة لا تخلو من فائدة، وأن ديوان ربيعة الرقي أحد شعراء الغزل المشهورين في عهد هارون الرشيد غير مطبوع فاستحسنت أن أقدم إلى قراء الرسالة الكرام قصيدة ربيعة المشتملة على هذه القصة وهي هذه:

أعلل نفسي منك بالوعد والمنى   فهلا بيأسٍ منك قلبي أعلِّلُ
وموعدكِ الشهدُ المصفى حلاوة
ودون نجاز الوعد صاب وحنظل
وأمنحُ طرف العين غيركِ رقبة
حذارَ العدى والطرفُ نحوكِ أميلُ
لكيما يقولَ الناسُ إنَّ امرأً رمى
ربيعة في ليلى بسوءٍ لمبطلُ
لقد كذب الواشونَ بغياً عليهما
وما منهما إلا بريءٌ معقلُ
فلو كنت ذا عقل لأجمعت صرمكم
برأيي ولكني امرؤٌ لستُ أعقلُ
وكيف يصبر القلب لا كيف عنكم
وبابُ فؤادي دونَ صرمكِ مُقفلُ
ومن أينَ لا من أين يَحرُم قتلُكم
وقتلي لكم يا أم ليلى محلَّلُ
أغركِ أن لا صبرَ لي في طِلابكم
وأن ليسَ لي إلاّ عليكِ معوَّلُ
ولما تبينتِ الذي بي منَ الهوى
وأيقنت أني عنكِ لا أتحول
ظلمت كذئب السوء إذ قال مرة
لسَخلٍ رأى والذئب غرثان مرمل
أأنت الذي في غير جُرْمٍ شتمتني؟
فقال: متى ذا؟ قال ذا عامُ أوّلُ
فقال وُلِدتُ العامَ بل رُمتُ غدرة
فدونك كلني لا هنا لك مأكل

أتبكين من قتلى وأنتِ قتلتنى بحبك قتلا بيناً ليس يشكل
فأنت كذباح العصافير دائباً وعيناه من وجد عليهن تهمل
فلو كان من رأف بهن ورحمة لكف يداً ليست عن الذبح تعطل
فلا تنظرى ماتهمل العين وانظرى إلى الكف ماذا بالعصافير تفعل

(باريس) عباس اقبال

حمى السياحة

كانت السياحة إلى ما قبل جيل فقط نوعا من الترف لا يتمتع به سوى الأغنياء؛ وكانت الرحلة إلى الشام أو إلى استانبول مثلا بالنسبة لآبائنا وأجدادنا حادثاً عظيما يتحدث به؛ وكان السفر إلى باريس أو الريفيرا متعة الأمراء والخاصة. أما اليوم فان السياحة تغدو حركة ثقافية ورياضية عالمية، يستطيع أن يتمتع بنعمها جميع الطبقات المتوسطة، وغدت المواصلات البحرية والبرية والجوية ميسورة يطيقها ويستعملها جميع الناس؛ وفى عصر السرعة الذى تهب ريحه اليوم على جميع الأمم والمجتمعات يستطيع السائح أن يطوف قارة بأسرها فى أيام معدودات، ويستطيع أن يقطع البحر إلى إيطاليا فى سبعين ساعة فقط، وإلى فرنسا فى أربعة أيام، ويستطيع أن يقطع ما بين الاسكندرية ولندن بالطيارة فى عشرين ساعة. وقد نظمت جميع الأمم السياحية عواصمها وربوعها ومتنزهاتها بصور وأساليب جذابة سواء فى برامج الزيارة أو فى تخفيض النفقات، وتسابقت معظم الأمم فى تقرير الامتيازات للسائحين بتسهيل المواصلات ومسائل النقد وغيرها مما يغرى السائح بتفضيلها، وتعنى الهيئات الثقافية والرياضية بتنظيم الرحلات الرخيصة للطلبة وأصحاب المهن وجماعات المثقفين وتعنى مكاتب السياحة نفسها بتنظيم الرحلات الرخيصة للطبقات المتوسطة باجور مدهشة.

فالسياحة لم تبق اليوم أمنية المترفين ولا حكر الأغنياء، ولكنها تغدو فى متناول معظم الطبقات؛ ويرجع الفضل فى ذلك إلى تحسن المواصلات العالمية ورقيها السريع المدهش، وإلى تنافس الأمم السياحية فى استثمار موارد السياحة إلى أقصى الحدود، ويرجع أيضاً إلى تقدم الصلات الدولية بين الشعوب المختلفة وإلى الرغبة فى تبادل الاطلاع والمعرفة والتثقيف، وتبادل المزايا التجارية والاقتصادية، وقد هبت هذه الريح السياحية على مصر فى الأعوام الأخيرة، وأتيحت الفرصة لطبقات جديدة من المتوسطين أن يقوموا برحلات بديعة بأجور زهيدة، وسرت الرغبة فى جميع طبقات المثقفين ولا سيما الشباب أن يسافروا وأن يسوحوا وأن يتعرفوا أحوال الأمم الأخرى، وقد وصلت هذه الحمى السياحية إلى أقصاها فى هذا الفصل حيث تعتزم ألوف عديدة من المصريين السفر إلى زيارة معرض باريس الدولى لا فرق فى ذلك بين المترفين وصغار الموظفين والطلبة والمتوسطين؛ وهذه رغبة مشروعة لا اعتراض عليها، بيد أنه يخشى أن تؤدى المبالغة فى تحقيقها إلى إسراف لا تحمد عواقبه، إذ تتسرب أموال المصريين إلى الخارج بكثرة، وتضطرب مالية كثير من المتوسطين وصغار الموظفين خصوصاً وإنه لا توجد بمصر قوانين لتقييد العملة أو تحديدها كما هو الشأن فى معظم البلدان، ولهذا يحسن بولاة الأمور أن يبحثوا هذه المسألة وأن يضعوا لها بعض الحدود والقيود المعقولة

كتاب جديد لماريا ريمارك

صدر أخيرا فى أمريكا كتاب جديد لماريا ريمارك عنوانه: «الرفاق الثلاثة» Drei Kameraden. وريمارك كما نذكر هو مؤلف الكتاب الذى لقى أعظم نجاح فى عصرنا وهو القصة المسماة «كل شىء هادىء فى الميدان الغربى» التى تدور حوادثها على حياة الجندى أثناء الحرب الكبرى. والكتاب الجديد هو إيضا قصة اجتماعية عسكرية من النوع الذى حذقه هذا المؤلف الذى حباه الحظ بأكثر مما حبته مواهبه الكتابية

وريمارك الآن فى التاسعة والثلاثين من عمره؛ وحياته قصة عجيبة، فهو ألمانى من وستفاليا، وكان فى حداثته يغنى فى جوقة بعض الكنائس؛ ولما نشبت الحرب كان جنديا يحارب فى الميدان الغربى؛ ولما انتهت الحرب فى سنة ١٩١٨ وعاد ريمارك إلى وطنه لم يجد سبيلا للعيش؛ فاحترف مهنة البائع المتجول فى القرى وأخذ يبيع السلع الرخيصة للنساء القرويات، ولكنه كان فى خوف دائم من البوليس لأنه لا يحمل رخصة البائع، ثم ترك هذه الحرفة واشتغل صبياً لبناء أثرى، ثم اشتغل عاملا فى أحد الملاجىء وبدأ حياته الكتابية بتحرير الاعلانات، وكان يحررها أحياناً بالنظم، ثم اشتغل كاتباً رياضياً

لاحدى الصحف، ثم كتب قصته الشهيرة فلم تنل فى البداية سوى قليل من النجاح، ولكن القدر كتب له بعد ذلك هذا النجاح العظيم الذى لقيه والذى أثرى من جرائه وعرف الحياة الناعمة وهو ما يزال فى عنفوان شبابه، وكان من حسن طالعه أيضاً أنه كسب على مائدة الميسر ذات يوم مبلغاً كبيراً من المال قبل أن يؤاتيه النجاح؛ فاستطاع بذلك أن يصلح شأنه وأن يسيح فى معظم بلاد العالم. ويعيش ريمارك الآن فى منفاه فى سويسرا كباقى الكتاب الألمان الأحرار الذين طاردتهم ألمانيا الهتلرية وأخرجتهم من أرض الوطن

قسم التفكير والآداب بمعرض باريس

أنشىء أخيراً فى معرض باريس الدولى قسم للكتاب وإذاعة الفكر برياسة المسيو (جوليان كان) مدير المكتبة الوطنية. والمنتظر أن يكون هذا القسم نواة لمتحف الآداب الذى سينشأ فى المستقبل القريب فى أبنية «دار الصناعة» (الأرسنال) وسيكون متحف الآداب أكبر ما عرف من نوعه، ويضم مجموعات عظيمة من الصور والمخطوطات والطبعات النادرة والتجارب المصححة والوثائق المتعلقة بتراجم كبار الكتاب والمجموعات الخاصة؛ وهذه المجموعات والتحف توجد الآن مبعثرة فى أقسام المكتبة الوطنية: ويتضمن القسم الأدبى بالمعرض تطور الآداب منذ عصر الامبراطورية حتى الوقت الحاضر، ومنها معروضات كثيرة تخص الكتاب المعاصرين. والمقصود أن تعطى فكرة واضحة عن تطور الكتابة والطباعة والأعمال الأدبية، وأن تعرف أكثر الأوقات والمواسم الأدبية انتاجاً. ويشمل القسم الأدبى ما يتعلق بكتاب عظام مثل بلزاك وفكتور هوجو وفلوبير وستندال ورينان وبودلير وبروست، ويقوم بعرض كل كاتب من هؤلاء كاتب من المعاصرين يختص بالتحدث عن حياته وآثاره وأسلوبه. ويشرف على عرض مخطوطاته وصوره وجميع الوثائق المتعلقة به ومنها تحفه وآثاره وتجارب المطبعة التى تحمل تصحيحاته، وطبعات كتبه وترجماتها. كذلك أعدت أقسام خاصة لكل نوع من المدارس الأدبية مثل المدرسة الواقعية والطبيعية والرمزية، وأدب المقاهى والأبهاء وغيرها. ولا ريب أن هذا القسم من المعرض سيجذب أنظار الكثيرين من الكتاب والأدباء من جميع الأمم

آثار فرعونية فى خطر

من أنباء فينا أن الدكتور أرنست آبلت العلامة الأثرى النمسوى والأستاذ بالمعهد المصرى بجامعة فينا قد أعاد أخيراً إلى العاصمة النمسوية بعد أن قضى بمصر بضعة أشهر منقبا فى بعض أنحاء الصعيد الجنوبية، ووقف على معلومات ومواد أثرية ثمينة ولا سيما بشأن المعابد والهياكل الجنوبية. وقد صرح الدكتور آبلت لبعض الصحف النمسوية أن تعلية خزان أسوان، وما يستتبع ذلك من غمر مياه النيل لبعض المناطق الأثرية المجاورة يهدد سلامة المعابد والآثار القائمة فى هذه المناطق خصوصاً أن المياه تغمر بعضها الآن حتى القمة، وكانت البعثة النمسوية للحفريات قد توقفت عن العمل نحو ثلاث سنوات لحاجتها إلى المال ثم استأنفت عملها فى الشتاء الماضى. وقد عثرت أثناء حفرياتها على عدة هياكل عظيمة فرعونية وبعض تحف حجرية، وستعود فى الشتاء القادم إلى استئناف أعمالها فى منطقة بنى سلامة من أعمال مديرية أسوان

كتاب فارسى قديم فى الجغرافيه

أصدرت مطبعة «بريل» فى ليدن E. J. Brill . Leiden كتابا فارسيا قديما فى الجغرافية ترجمه المستشرق منورسكى ترجمة كاملة عن الفن الفارسى:

وهذا الكتاب - واسمه «حدود العالم» - لمؤلف فارسى قديم لم يعرف، ألفه سنة ٣٧٢هـ. وكان قد عنى به المستشرق الروسى بارتولد فكتب له مقدمة طويلة ونشره فى سنة ١٩٣٠، غير أنه وجد صعوبة فى تحقيق أسماء الأماكن والمدن الإنجليزية التى وردت فى الكتاب فعمد إلى اختصار بعض موضوعاته.

كتاب المثنوى فى الانجليزية

أصدرت مطبعة بريل فى ليدن الجزء السابع من سلسلة كتاب المثنوى لجلال الدين الرومى، وهى توالى إخراج هذا الكتاب سلاسل وأجزاء مع ترجمته إلى الإنجليزية وتعليقات عليه بقلم المستشرق رينولد نيكلسن

وكتاب المثنوى مؤلف قيم معروف، وقد قرظ صاحبه بهذه العبارة المأثورة: «إنه جاء بكتاب وإن لم يكن نبياً»، وقد عرض فيه مؤلفه لمبادىء الصوفية وتعاليمها فشرحها شرحا مستفيضاً.

(البقية فى ذيل الصفحة التالية)



ممنون الفيلسوف

او الحكمة الانسانية

بقلم فولتير

ترجمة الأستاذ عبد اللطيف النشار

آلى ممنون على نفسه : أن يصير فيلسوفاً عظيماً فى يوم من الأيام . وقليل من الناس هم الذين لم يعتزموا فى وقت ما مثل هذا العزم الرائع .

قال ممنون فى نفسه : إن بلوغ الكمال فى الفلسفة معناه بلوغ الكمال فى السعادة . وليس على أن أعمل لكى أصير فيلسوفاً إلا التجرد من كل الشهوات ؛ ولا شىء أسهل من ذلك كما يعرف كل إنسان . وسأبدأ بمقاومة الحب فإذا رأيت امرأة جميلة أقول فى نفسى إن هذه الخدود ستدركها الغضون ، وإن هذه العيون ستصبح طعاماً للدود ، وإن هذا الرأس سيصبح جمجمة منخوبة . فإذا ما تصورت خيالها وهى كذلك فإن جمال وجهها لن يؤثر فى نفسى

هذا من جهة . ومن جهة أخرى فإنى سألزم القصد والاعتدال ، فإذا ما وجدت من نفسى إغراء على شرب النبيذ الشهىّ أو الطعام المرىء أو غيره مما يفتتن به المجتمع ذكّرتها بآلام الرأس من التغالى فى الشراب ، وبآلام البطن من التغالى فى الطعام ، وحذرتها من فقدان العقل والصحة . ومتى تجنبت التغالى ظلت صحتى موفورة وظل ذهنى نقياً وضاءً

وقال ممنون : كذلك يجب ألا أفكر كثيراً فى الثروة لأن رغائبى معتدلة وما عندى من المال يكفى لأن أعيش مستقلا

ويتضمن هذا الجزء الذى صدر أخيراً تعليقات المستشرق نيكلسن على الجزء الأول والثانى من الكتاب ، أما الاجزاء التى ظهرت من قبل فهى :

١ — نص الكتابين الأول والثانى .

٢ — ترجمة الكتابين الأول والثانى إلى الانجليزية .

٣ — نص الكتابين الثالث والرابع

٤ — ترجمة الكتابين الثالث والرابع إلى الانجليزية .

٥ — نص الكتابين الخامس والسادس .

٦ — ترجمتهما إلى الانجليزية .

لجنة احياء ذكرى المنفلوطى :

ناشدت لجنة إحياء ذكرى المنفلوطى أساطين الأدب وأعلام البيان فى الشرق العربى على صفحات الجرائد والمجلات أن يتفضلوا بالكتابة عن أدب الفقيد الخالد من شتى نواحيه بمناسبة مرور ثلاثة عشر عاما على وفاته وتمهيداً لإحياء ذكراه فى ١٦ يوليو القادم ، وكان ذلك فى أول مايو غير أنه والأسف يحز فى نفوسنا لم يتحرك قلم لأداء هذا الغرض النبيل كما أنه لم تصل السكرتارية حتى الآن أية رسالة فى هذا الموضوع ، ولقد قر الرأى - بناء على اقتراح الاستاذ توفيق حبيب - على وضع كتاب عن أدب المنفلوطى لتخليد ذكراه ، تتبارى فيه جهابذة الأدباء فى جميع أقطار الشرق العربى ، وذلك بأن يختار كل من حضرات الأدباء والشعراء مايروقه من الموضوعات فيكتب فيها بحثاً ضافياً يرسله إلى السكرتارية قبل آخر يونيو الحالى حتى اذا تكامل لديها ما يكفى لمادة الكتاب قامت بطبعه وأنفقت ثمنه فى تشييد قبر يتفق ومكانة المنفلوطى العالمية . واللجنة تتوجه بالرجاء الشديد إلى حضرات الكتاب والأدباء والشعراء ألا يضنوا بمجهوداتهم وأن يحققوا ما تعلقه عليهم من آمال .

سكرتير اللجنة
متولى حسنين عقيل

وهذه أكبر نعمة فى الوجود . ولن أجد ضرورة لحضور الحفلات الراقصة فى القصر . ولن أحسد إنساناً ولن يحسدنى إنسان . وهذا كله سهل . ولى أصدقاء سأحتفظ بهم ولم ينشب بينى وبينهم خلاف فلم أعترض أحدهم فى قول أو فعل وسيسلكون معي هذا المسلك . ولا صعوبة فى ذلك ...

وهكذا وضع ممنون خطة لفلسفته ثم أطل من النافذة فرأى امرأتين تسيران تحت الأشجار ، وكانت احداهما كبيرة تبدو عليها علائم الرضى ، والثانية صغيرة جميلة . ولكن علائم التذمر بادية عليها . وكانت تبكى وتتنهد ، فتأثر فيلسوفنا من رؤيتها - على أنه من المحقق أن جمالها لم يكن له دخل فى هذا التأثير - (لأنه آلى على نفسه ألا يزعجه شىء من هذا القبيل) بل كان تأثره بسبب الحزن الذى رآها فيه ، فنزل من المنزل ليعزى تلك السيدة بفلسفته ، فروت له الجميلة بأبسط اللهجات وأشدها تأثيراً ما تألم منه . وشكت له من عم تتخيل وجوده يريد أن يحرمها ثروة تتوهمها . وقالت : يظهر أنك رجل حكيم . وإنك لتنقذنى من متاعبي إذا أتيت إلى منزلى ودرست قضيتى وأشرت علىّ بالرأى الذى تراه

فلم يتردد ممنون فى اتباعها لدرس قضيتها دراسة فلسفية وليشير عليها بالرأى الراجح

وقادته المرأة الجميلة إلى حجرة تفوح منها روائح العطر وأجلسته على نمرقة متسعة وجلست أمامه جلسة المتحدث إلى من يحدثه وقد تقاربت أقدامهما . وكان أحدهما يقص قصته والآخر يصغى اليه أتم الاصغاء .

وكانت السيدة تتكلم وهى ناظرة إلى الأرض والدموع تنحدر من عينيها بين حين وحين ، ثم ترفع بصرها لتنظر إلى وجه الحكيم ممنون . وكان الحديث فى منتهى الرقة . وقد زاد عطف الفيلسوف وسر بأن يكون فى وسعه تخفيف الألم عن مخلوقة بهذه الدرجة من الجمال ، وهذه الدرجة من التعاسة . ولما اشتدت حرارة الحديث جلس المتحادثان المتقابلان جنباً لجنب ، وتدانى الساقان ، وكان ممنون يمنحها من نصحه الرقيق ومن عطفه حتى صار كلاهما لا يستطيع الكلام عن الموضوع الذى كانا يتناولانه . وحتى صار كل منهما لا يدرى أين هو

وفى مثل هذا الحين من الذى يظن أنه يأتى إليهما غير العم الذى كانت تشكوه ؟ لقد جاء مسلحاً ، وكانت أولى كلماته أنه سيضحى بالحكيم ممنون ، وبنت أخيه ، وقد أسرعت الأخيرة ففرت ، وهى موقنة بأن صاحبها سينجو إذا اشترى حياته بكل ما معه من المال وقد اضطر إلى بذل ما معه ليفتدى نفسه وقد كان الناس فى ذلك العهد سعداء لأنهم يستطيعون النجاة ، بسهولة بمثل هذه الوسيلة . وكانت أمريكا لما تستكشف بعد ، وكان السيدات التاعسات أقل تعرضاً للخطر مما هن عليه الآن

وخرج ممنون من المنزل متعثراً بأذيال الخجل فذهب إلى منزله . وهناك وجد دعوة إلى تناول العشاء من بعض أصدقائه الخلصاء ، فقال فى نفسه اذا بقيت وحدى فى المنزل فان ذهنى سيظل مشغولا بالتفكير فى حادثة اليوم ، ولا أستطيع أن أتناول لقمة ، وربما جلب إلى ذلك مرضاً ، ولذلك سأذهب إلى أصدقائى . وسأنسى فى مجلسهم ما ارتكبته اليوم من الحماقة

وذهب اليهم فوجدوا عليه بعض علائم القلق وحثوه على أن يشرب ليصرف عن نفسه الهم فقال فى نفسه : « إن قليلا من النبيذ لا يتنافى مع الاعتدال ، وهكذا شرب ممنون حتى سكر .

ودعى إلى اللعب بالأوراق فقال إن اللعب بها مدة يسيرة مع صديق لا يتنافى مع الاعتدال . وهذا اللعب من خير الوسائل لتمضية الوقت .

ولعب حتى خسر كل ما معه وهو أربعة أضعاف ما كان مستعداً ليلعب به .

ولسبب ما نشأ خلاف بين اللاعبين واشتد الخلاف فصار مشاجرة ، فرماه بعض أصدقائه بصندوق صغير جرح رأسه وإحدى عينيه ، فحمل الفيلسوف ممنون إلى منزله سكران مفقود إحدى العينين .

نام . ولما أبل بعض الابلال أرسل إلى مدير المصرف الذى يودع فيه أمواله يطلب ما يفى به ديونه فى اللعب ، فعاد الخادم وأخبره بأن المصرف أفلس بالتدليس وأن مئات من الأسر قد أصبحت فى أشد حالات البؤس والفاقة ، فكاد يذهل ممنون ، وذهب إلى البلاط لرفع قضيته ، وهناك وجد عدداً من السيدات وآخر من القسس ورأته إحدى صديقاته فصاحت : « مالك يا مسيو ممنون ! كيف فقدت إحدى عينيك؟» ثم جرت دون أن تنتظر الجواب ، فانتظر ممنون حتى الساعة

التى يستطيع فيها الارتماء على قدمى الملك لبث شكواه .

وأخيراً جاءت تلك الساعة فقدم إليه عريضته . واستقبله الملك إستقبالا حسناً . ولكن كبير الأمناء صاح به بعد ذهاب الملك : « كيف تقدم عريضتك إلى الملك مباشرة دون تقديمها إلىّ ؟ وكيف تطلب المقاضاة على تفليسة شريفة ضد ابن أخت وصيفة زوجتى ؟ إن هذا التصرف يدل على أنك لا تحرص على عينك الأخرى » .

فعند ما سمع ممنون ذلك — وكان إلى الآن عازماً على هجر النساء والتقليل من الطعام والشراب وترك المشاجرة — عزم أيضاً على الكف عن دخول البلاط وعن طرق سبيل القضاء لأن هذا السبيل ألحق به الاهانة وحرمه الانصاف

وتصدع قلبه من الحزن فعاد إلى المنزل يائساً . ولكنه وجد المحضرين يشرعون فى بيع أثاثه وفاء لديون دائنيه فوقع على الأرض فى حالة تشبه الاغماء . ورأى فى الطريق السيدة التى قابلها فى الصباح مع عمها فضحكا منه ضحكة عالية .

وفى المساء صنع ممنون لنفسه وسادة من القش ونام بجانب الحائط ، فرأى فى الحلم تلك الروح الفلسفية التى كان يتعشقها وهى روح من النور لها ستة أجنحة جميلة . ولكن ليس لها رأس ولا قدمان وهى لا تشبه شيئاً مما سبقت له رؤيته ، فقال : « من أنت أيتها الروح ؟ » .

قالت : « أنا روحك » فقال : « ردى إلىّ عينى وصحتى وثروتى وعقلى »

ثم قص عليها قصة يومه فقالت : « هذه حوادث لا تحدث فى الموطن الذى أنا فيه » .

قال : « وأين ذلك الموطن ؟ » . فأجابته : « هو على بعد خمسمائة مليون فرسخ من الشمس ، وهو موطن جميل . وليس هناك شياطين تغرى ولا أصدقاء يجالسون المرء ليسلبوا ماله ، وليس هناك من يخرقون عيون الناس ، ولا إفلاس بالتدليس ، ولا أمناء ملوك يسخرون ممن يطلب العدالة ؛ وليست تخدعنا النساء لأنه لا نساء بيننا ، وليس عندنا طعام ولا شراب ، وليس عندنا تفليس لأنه لا ذهب عندنا ولا فضة ، وليس لنا عيون تقلع لأن أجسادنا نورانية ليست كأجسادكم . وليس عندنا بلاط لأن الكل متساوون » .

قال ممنون الفيلسوف : « اذا لم يكن عندكم نساء ولا طعام ولا شراب فكيف تقضون أوقاتكم ؟ » .

قالت : « نحن موكول إلينا مراقبة دنياكم وقد جئت إليك لأعزيك » .

قال ممنون : « ولكن لماذا لم تأتى بالأمس لتمنعينى من اقتراف ما اقترفت ؟ » .

فقالت : « لقد كنت مع أخيك الأكبر « حسن » الذى كان فى بؤس أشد من بؤسك لأن سلطان الهند أمر بقلع عينيه وهو الآن فى السجن ويداه ورجلاه فى السلاسل والاغلال » .

قال : « وهل من العدل أن يكون اثنان من أسرة واحدة أحدهما أعور والثانى أعمى ، وأحدهما ينام على وسادة من قش والآخر فى السجن ؟ » .

فقالت الروح : « إن حظك سيتغير سريعاً . نعم إن عينك لن تشفى ولكنك ستصير سعيداً إذا نزعت عن فكرك الرغبة فى أن تكون فيلسوفا كاملا » .

قال ممنون : « إذن فذلك مستحيل ! » . فقالت الروح : « إنه لمن المستحيل أن يصير المرء كامل العقل كامل السعادة ، فنحن أنفسنا بعداء عن الكمال مع أننا أرواح . وسيأتى عالم غير هذا العالم يكون ذلك كله ممكناً فيه . ولكن بيننا وبين هذا العالم مائة الف مليون من العوالم يتدرج فيها المرء إلى ذلك العالم الكامل . وفى كل درجة من تلك الدرجات العالية تنقص الفلسفة وتنقص المسرات بالتدريج حتى يصير الناس فى العالم الكامل كلهم بلهاء » .

قال ممنون : « أخشى أن تكون هذه العوالم التى تتدرج فيها إلى الكمال ليست إلا مستشفيات للمجاذيب وإن عالمنا هذا ليس إلا واحدا منها » .

فقالت الروح : « إذا لم يكن هذا الوصف منطبقاً فانه ليس بالبعيد » .

قال : « ولكن هل الشعراء والفلاسفة مخطئون إذ يقولون إن كل شىء فى هذا الوجود آخذ فى سبيل الارتقاء » .

فقالت : « كلا ليسوا مخطئين ولكن لكى نتبين الصدق فيما يقولون يجب أن نراعى صلة كل شىء بمجموعة العالم فانما كمال الأشياء أن يتم اتصالها بالعالم لصالح العالم » .

فأجاب ممنون : « لست أستطيع تصديق ذلك إلا إذا رجعت إلىّ عينى »

عبد اللطيف النشار